النهضة

"Rennaissance"

الدكتور كمال مظهر احمد

منشورات وزارة الثقافة والفنون

الجمهورية العراقية　　　　１٩٧٩

المؤلف في سطور

كمال مظهر أحمد

- ولد في السليمانية سنة ١٩٣٧
- تخرج في كلية الاداب بجامعة بغداد بمرتبة الشرف عام ١٩٥٩
- نال شهادة الدكتوراه في اكاديمية العلوم السوفيتية عام ١٩٦٣
- نال شهادة دكتوراه (ناوك) (العلوم) في المؤسسة نفسها عام ١٩٦٩
- يعمل استاذاً مساعداً في قسم التاريخ بكلية الاداب ـ جامعة بغداد
- نشر عدة مقالات وبحوث باللغات العربية والكردية والروسية
- من مؤلفاته :
- كردستان في سنوات الحرب العالمية الاولى أضواء على قضايا في الشرق الاوسط

مقدمـة

تحتل النهضة "Renaissance" مكانة جد بارزة في تاريخ أوروبا ، بل في كل التاريخ الحضاري الانساني لما قدمت من جديد في مجالات الابداع الفكري والفني ولما احدثت من تغيير في نظرة الانسان للحياة وفي تقييماته لمظاهرها بحيث انها (النهضة) غدت تشكل نقلة كبيرة ذات مضمون شامل في مسيرة التطور البشري تمدت آثارها حدود القارة الاوروبية بشكل يحس المرء حتى اليوم باشعاعاتها النيرة اينما كان . فقد تمخضت النهضة عن احياء القديم وتطوير ما كان قائماً وتدشين بدايات رائعة في حقول شتى من المعرفة الانسانية . من هنا لم يكن عبثاً أن اطلق المفكرون اسمها على عصر كامل من تاريخ اوروبا ، لا يزال المؤرخون وغيرهم من الباحثين يجدون في سبر اغواره ، وحسبما يبدو فان هذه المهمة الجليلة لن تنتهي لان كنز النهضة العامر يدخل في عداد اللامنتهي .

اذن لابد لكل مثقف من ان يكون على المام كاف بتاريخ النهضة الاوروبية ، ظروف ميلادهـا ومنجزاتها الاصيلة في مجالات شتى فنية وادبية وعلمية . وثمة نقطة اساسية اخرى تجعل من دراسة النهضة واستيعاب تجاربها مهمة ملحة يقع انجازها على عاتق المختصين . فهناك شبه كبير بين احداث اوروبية كثيرة طفت على السطح في عصر النهضة ومايجري الان فوق مسرح اقطار العالم الثالث من احداث ومتغيرات سريعة مع الاخذ بالحسبان فارق الزمن والمكان . لذا فان بمستطاع ابناء شعوب عالمنا الثالث ، وبخاصة من يدخل منهم في عداد قادة الراي والفكر واصحاب القلم ، ان يستنبطوا دروسا جديرة من ذلك التاريخ الحافل .

تستهدف هذه الدراسة تقديم صورة مركزة عن الخلفية التاريخية التي افضت الى خلق النهضة مع تحديد مراحلها وخصائصها ونتائجها الى جانب عرض سريع لابداعات عدد من كبار اعلامها الافذاذ ليصبح في الامكان القاء ضوء اكثر على اهم جوانب هذا الموضوع الشيق والشاق .

الفصل الاول

اوروبا على مشارف عصر جديد

عاشت القارة الاوروبية قرونا طوالا اتسمت الى حد كبير بالتخلف والظلام والتزمت ، اتفق المؤرخون على تسميتها بالعصر الوسيط الذي امتد ، في راي بعضهم ، حتى أواسط القرن الخامس عشر وفي راي الاخرين منهم الى اواسط القرن السابع عشر . ومهما يكن من أمر تحديد الاطار الزمني لهذا العصر فان أواخره ، التي غطت فترة زمنية غير قصيرة ، شهدت بوادر تغييرات مهمة نقلت القارة الاوروبية الى عصر حافل جديد وضعتها احداثه في وضع متميز عن معظم مناطق العالم الاخرى التي كان يعيش بعضها حياة بدائية ، كما كان عليه الامر في القارتين الامريكيتين عند اكتشافهما ، ودخل بعضها الاخر مرحلة الاقطاع لتود فكانت العلاقات البترياركية (الابوية) تحتفظ في مجتمعاته بقوة اساسية مثلما كان الوضع في

مناطق افريقية وحتى اسيوية واسعة ، وغدا بعضها الثالث ، ونقصد به شرقنا العريق ، يعيش جزرا حضاريا خطيرا بعد ان دشن اللبنات الاولى في اساس الحضارة الانسانية ودفع بعجلتها خطوات كبيرة على درب النمو والتكامل .

شهدت القارة الاوروبية (لا سيما الاجزاء الغربية منها) في فجر عصرها الجديد احداثا تاريخية ـ اجتماعية وفكرية في غاية الاهمية تحتل النهضة فيها مكانة بارزة . ولم تكن الاستكشافات الجغرافية الكبرى وحركة الاصلاح الديني والثورات البورجوازية الجارفة والتطورات العلمية الخلاقة وغيرها من المظاهر المهمة الجديدة اقل اهمية من النهضة ، فجميعها كانت تشكل حلقات متصلة لسلسلة واحدة تركت آثارا عميقة على مجمل التاريخ الانساني . وبطبيعة الحال لم تقع كل هذه الاحداث بصورة عفوية او اعتباطية ، بل انها جاءت بمثابة تعبير طبيعي عن تغييرات عميقة بدات تاخذ مكانها ـ بحكم عوامل محددة ـ في قاعدة المجتمعات الاوروبية الغربية قبل غيرها فانتقل اليها الثقل الحضاري لتبدأ من حيث وصل الشرقيون .

فقبل كل شيء بدات العلاقات الراسمالية الجديدة تظهر وتنمو في رحم المجتمع الاقطاعي الاوروبي في القرون الاخيرة من العصر الوسيط مما

تحول الى عنصر اساس في تسريع عملية انحلال القاعدة الاقتصادية لذلك المجتمع الذي اخذ يلفظ القديم ويتلقف الجديد . بدات عملية التحول هذه بطيئة لتغدو اسرع فاسرع مع تقادم الزمن وبفعل محركات فرضت نفسها كعوامل مؤثرة ثابتة . فقد حدثت طفرة نسبية في تطور وسائل الانتاج الحرفي والزراعي الاوروبيين خلال الفترة الممتدة بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر عندما بدأ الفلاحون والحرفيون الاوروبيون يتمتعون ، بالرغم من ثقل الاستغلال الاقطاعي الواقع عليهم ، بنوع من امكانات التصرف الذاتي والاستفادة المتزايدة من نتاج عملهم فاصبح بامكانهم ان يولوا تطوير وسائل عملهم اهتماما اكثر بقصد تحقيق فوائد اكبر ، فتراكمت تجاربهم التي افضت الى تطوير متزايد لتكنيك الانتاج . وهكذا لم يحل القرن السادس عشر حتى حدثت تغييرات عميقة في الانتاج المادي لاقطار عديدة في غرب القارة الاوروبية ووسطها .

ادى هذا التقدم في الانتاج المادي الى تسريع عملية تراكم راس المال في البلدان الاوروبية بوتائر لم يعرفها التاريخ سابقا ولم تجارها فيها آنذاك اي بقعة اخرى في العالم . ومن المهم ان نلاحظ ان هذه العملية لم تعتمد في البداية على تطور الانتاج في الريف والمدينة وازدياد الارتباط بينهما ، وعلى

تقدم التجارة الخارجية فحسب ، بل واعتمدت كذلك على عنصر بشري مهم نجم عن تحول الاف مؤلفة من الفلاحين الذين فقدوا كل مصدر للعيش في الريف الى ايد عاملة رخيصة للغاية ضمنت لاصحاب الورشات الجديدة ارباحا طائلة اعطتهم امكانات اوسع لتطوير مؤسساتهم .

ومن جراء هذه العوامل وغيرها شهدت اواخر العصر الاقطاعي الاوروبي ميلاد طبقات وفئات اجتماعية جديدة تحولت الى لولب التغيير في القارة ذلك لانها كانت لها مصالحها وطموحاتها التي اصطدمت مباشرة بما كان يسود اوروبا من قيم وأفكار غدت بالية الى حد أصبح من المتعذر التعايش معها . ففي أواخر القرن الخامس عشر ظهرت العناصر الاولى للبورجوازية كطبقة في عدد من المجتمعات الاوروبية الغربية وهي بدأت تتطور بسرعة بحيث لم يمر اكثر من قرن عندما تحولت في انكلترا ، مثلا ، الى طبقة متكاملة من جميع الاوجه تقريبا .

لعبت المراتب المختلفة للطبقة البورجوازية دورا اساسيا في التغييرات السريعة التي شهدتها القارة الاوروبية على أصعدة شتى اجتماعية واقتصادية وفكرية ، الا ان الفئة المثقفة البورجوازية

(الانتلجينسيا[١] البورجوازية) هي التي وقع على عاتقها القسط الاكبر من مهمات التطوير المادي والفكري الاوروبي في المرحلة الجديدة . فابناء هذه الفئة هم اكثر الناس الذين اسهموا في تطوير وسائل الانتاج عن طريق الاختراعات الحديثة ، وهم الذين قاموا بصياغة افكار الطبقة البورجوازية في اطار فلسفي واستنبطوا النظريات والافكار الاقتصادية الجديدة التي كان من شأنها هز اركان المجتمع الاقطاعي القائم بشكل ينحسر عن المسرح باسرع ما يمكن ليحل محله مجتمع اكثر تطورا بما لا يقاس .

وكان منطقيا ان يأخذ ابناء هذه الفئة بين ايديهم قيادة دفة الحركة الثقافية ــ العلمية ــ الفكرية العظيمة في عصر النهضة . وقد فرضت حاجات المجتمع الجديد على هؤلاء توجها شاملا واكبر الى حد لا يقاس بالمرحلة السابقة ، نحو الثقافة الدنيوية . وعلى سبيل المثال لا الحصر نورد هنا مثلا واحدا كمؤشر مقنع لهذه الحقيقة الثابتة . فان نمو الانتاج السريع وازدياد دور النقد في التعامل والتطور التجاري المتشعب الذي أصبح يعتمد على عقد الصفقات والقروض والتنافس الحاد

(١) مشتقة من الكلمة اللاتينية «انتلجينس» التي تعني الموهوب والمدبر او العليم والفاهم .

وعوامل اخرى كثيرة ادت الى ظهور مشاكل ونزاعات اقتصادية ومالية لا تحصى بين مختلف اصناف التجار واصحاب الورشات والمحلات الحرفية والمخترعين وغيرهم الذين اصبحوا بحاجة ملحة الى عون المحامين لايجاد مخارج وحلول قانونية وعملية لمشاكلهم المعقدة . وهذا بالذات يفسر لنا لماذا اصبح المحامون يشكلون جزءا كبيرا ومؤثرا للغاية من الانتلجينسيا البورجوازية .

من الضروري ان نشير هنا الى حقيقة اخرى ترتبط بالانتماء الاجتماعي لابناء الفئة المثقفة الجديدة . فعلى العكس تماما من العهد الاقطاعي خرج معظم هؤلاء من بين صفوف ابناء الفئات الاجتماعية الدنيا (دون المتوسطة) ، ولم يفقد قسم كبير منهم ـ على الاقل في حدود الاجيال الاولى ـ كل الخيوط التي كانت تربطهم بالاوساط التي خرجوا منها . وفي ذلك بالذات نجد تفسيرا مقنعا لاهتمامات اعلام النهضة بالتعبير عن واقع تلك الفئات سواء في لوحاتهم او في مؤلفاتهم التي انعكست فيها بقوة ـ كما نرى ذلك فيما بعد ـ لغة وحكم وامثال وفولكلور الاوساط الشعبية . بل اكثر من ذلك ظل بعض افراد الفئة المثقفة الجديدة ينتمون فكريا الى نفس الاوساط الاجتماعية التي خرجوا منها فعبروا عن مشاكلها الحياتية باخلاص

وباسلوب لا يخلو عن عمق فلسفي منهم الثوري الالماني توماس مونزير (١٤٩٠ ـ ١٥٢٥) والمفكر الفرنسي جان ميسلييه (١٦٦٤ ـ ١٧٢٩) .

تكونت في المرحلة نفسها الطبقة العاملة في الاقطار الاوروبية ، وجاء تكونها على حساب الفلاحين المعدمين الذين جردوا من الارض وكل مصدر آخر للعيش في الريف ، ومن الحرفيين الصغار الذين فقدوا امكانات العمل في ظل الانتاج الراسمالي الاكثر كما والاجود نوعا والارخص سعرا مما كانوا ينتجونه هم . ولقد مرت الطبقة العاملة ، مثل البورجوازية ، بمراحل مختلفة الى ان تبلورت وتكاملت في النهاية . ففي البداية ظل العمال الاجيرون يشكلون جزءا صغيرا في الكيان الاجتماعي حتى في اكثر الاصقاع الاوروبية تطورا . وتكونت بالتدرج بروليتاريا[٢] الورشات التي ظل معظم

---

(٢) من الكلمة اللاتينية "Proletarii" التي تعني (الارث) و (الوراثة) . استخدمت كمصطلح اجتماعي لاول مرة في عهد الرومان . فبموجب الاصلاح الاداري الذي قام به القيصر سيرفيوس ليلليوس تم تقسيم المجتمع الروماني في القرن السادس قبل الميلاد الى خمس فئات اجتماعية حسب امكانات افرادها المادية ، وقد وزعت مقاعد مجلس الشعب عليها حسب اساس نسبي . ولكن بقيت فئة معدومة لم ترث شيئا في الاصل فاطلقت عليها ←

افرادها يحتفظون لفترة طويلة من الزمن بعلاقاتهم بالريف وببعض وسائل الانتاج ، بل اقاموا نوعا من العلاقات البترياركية (الابوية) مع اصحاب الورشات التي انتقلوا اليها . من هنا فان الطبقة العاملة لم تشكل في عصر النهضة سوى عنصر اجتماعي غير واع لدورها وموقعها فلم تستطع ، والحالة هذه ، ان تكون اكثر من وقود لتسيير عجلة التغيير .

حتمت التغييرات الكبيرة التي شهدتها المجتمعات الاوروبية ظهور افكار جديدة تعبر عن مصالح واهداف وتقييمات الفئات والقوى الاجتماعية النامية التي خاضت ، مضطرة ، معمعان صراع مستديم مع القديم فغدت بحاجة ملحة الى تعابير ومنطلقات قوية تمثل واقعها وتستهدف تثبيت وتطوير مصالحها وقيمها . ولم تكن النهضة في اطارها العام سوى واحدة من الظواهر التاريخية ـ الاجتماعية المبكرة التي رافقت فترة الانتقال من العصر الوسيط الى العصر الحديث .

كلمة البروليتاريا ومنحت مقعدا واحدا من مجموع ١٩٢ مقعدا من مقاعد المجلس . تلي ، بالطبع ، المفهوم الاجتماعي والسياسي لهذا الاسم . ترجمت « البروليتاريا » الى العربية لاول مرة اثناء مؤتمر شعوب الشرق في باكو (ايلول ١٩٢٠) فقد كتب على احدى لافتات المؤتمر : « يا صعاليك العالم اتحدوا » .

تعددت العوامل التي ادت الى تكامل عناصر ميلاد النهضة التحولات التي جرت في قاعدة المجتمعات الاوروبية الغربية لتشمل جملة عوامل خارجية تفاعلت مع تلك ، بل اعطت بعضها قوة دفع كبيرة واسهمت بشكل مباشر في ميلاد بعضها الاخر . ففي المرحلة الاخيرة من العصر الوسيط بدات اوروبا تستقبل مؤثرات شرقية مهمة هزت اركان قيم مجتمعاتها الاقطاعية المتيدة . وكان الجانب الاكبر من هذه المؤثرات الشرقية اسلامية الاصل والمنبع وصلت الارض الاوروبية عن طريق الاندلس وصقلية والاقطار العربية المشرفة على السواحل الشرقية لحوض البحر الابيض المتوسط . فبفضل الاندلس انتقلت مؤلفات الفلاسفة الاقدمين ، وعلى راسهم ارسطو وافلاطون ، الى ايد اوروبية بعد طوال فقدانها ، وهي وان لم تخل من بعض النواقص الا انها كانت تحتوي ايضا على اضافات جديدة نابعة من اصول حضارية اسلامية . وعن طريق صقلية التي ظلت بايدي العرب المسلمين على مدى قرنين انتقل الشيء الكثير من العلوم الطبيعية والطبية والفلسفية الى اصقاع اوروبية شتى . وان الموجات الصليبية المندحرة لم تنقل معها الى حيث اتت الروايات المغرية عن ترف الشرق وجلاله فحسب ، بل حملت كذلك من بدائع الفكر والصنعة ما كان

يكفي لتحريك اي عقل ودفعه الى المقارنة المجدية . وبعد عودة السادة الاقطاعيين ورجالهم من المشرق بدأوا يدركون مغزى « اعمل لدنياك كانك تعيش ابدا » بعد ان جعلتهم الكنيسة الكاثوليكية يعملون في عقر دارهم لآخرتهم فقط وكأنهم يموتون غدا . فبدأ الاوروبيون ، كالشرقيين ، يجمعون بين المفهومين ، واذا بالقصور الشامخة تظهر تدريجا الى جانب الكنائس والاديرة .

سبقت النهضة الكبرى ، وبفعل العوامل السابقة أو بعضها ، ومضات حضارية اخرى كالنهضة الكارولنجية في القرن التاسع والاوتونية في القرن العاشر وغيرهما فيما بعد ، الا انها جميعا ظلت تتحرك في اطار ضيق لتتحول الى اشبه ما يكون بخلفية تاريخية للنهضة الاوروبية الكبرى التي بلغت الذروة في اواخر القرن الخامس عشر وتميزت عن كل ما سبقها بخصائص لم تشهد لها اوروبا مثيلا من قبل .

الفصل الثاني

النهضة

اطارها الزمني وخصائصها

مفهوم النهضة :

مما تقدم يبدو ان « النهضة » كانت وليدة مجموعة عوامل داخلية اساسية وخارجية مساعدة تفاعلت في رحم المجتمع الاقطاعي الاوروبي . من هنا فان النهضة كانت تشكل ، بحكم واقع تكونها ، اتجاها جديدا في التفكير والنظرة الى الامور تختلف كليا عما كان يسود ذلك المجتمع من قيم نجمت عن طبيعة العلاقات الاقطاعية التي تحولت الى عبء في غاية الثقل على كاهل الناس وكذلك عن جمود ودكتاتورية الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تقيد الفكر وتحول دون الابداع ، فبدأ المفكرون بالبحث عن اساليب جديدة لمناهضة الافكار والنظم السائدة ولفضحها . وبقصد تحقيق هذا الهدف توجه هؤلاء

الى بعث الثقافات القديمة ، ولا سيما الاغريقية منها ، فهم كانوا يتصورون ان بامكانهم الانعتاق من قيود العصر الوسيط والتعمق في فهم الطبيعة والتعبير عنها والاستفادة منها عن طريق احياء التراث القديم . من هنا جاء اسم الاتجاه الفكري الجديد "Renaissance" الذي يعني (البعث) او (الاحياء) او (الميلاد الجديد) في الفرنسية وقد استخدمه رجال النهضة انفسهم لاول مرة[1] .

يرى بعض الفلاسفة والمؤرخين ان الانسانية لم تعرف من قبل حدثا اهم واخطر من «النهضة» . وفعلا ترتبط بعصر النهضة ابداعات وتغييرات فكرية عميقة تستأثر وقائعها حتى اليوم باهتمام المئات من المؤرخين والفنانين والنقاد المنتمين الى مدارس فكرية مختلفة . لذا وليس مجرد صدفة ان تظهر نقاشات واجتهادات علمية مختلفة تتناول خصائص النهضة واطارها الزمني وغير ذلك من المواضيع المهمة التي نحاول فيما يلي القاء بعض الضوء على جوانبها الاساسية .

(1) في العربية تستخدم (النهضة) للتعبير عن ذلك الاتجاه الفكري الاوروبي وعن عصره ، وقد غدا تداولها كمصطلح تاريخي شائعا بين المؤلفين منذ عشرات السنين .

ايطاليا والاطار الزمني للنهضة :

يدخل تحديد الاطار الزمني لعصر النهضة والبلدان التي شملتها مظاهر النهوض الجديد مع تعيين مداها وآثارها ضمن القضايا المعقدة التي لا يزال يدور حولها نقاش علمي مفيد . لم تخضع ، بالطبع ، جميع نتاجات القرنين الخامس عشر والسادس عشر الابداعية لقيم واتجاهات النهضة ، فالى جانب افكارها استمرت كذلك ثقافة العصر الوسيط . ثم ان مظاهر النهضة لم تقتصر على بلد اوروبي دون آخر كما لم يجر تطورها ومن ثم ذبولها بوتيرة واحدة وعلى نمط واحد . فقد اختلفت هذه الامور حسب البلدان والظروف . ولكن يوجد نوع من الاجماع العام على اعتبار ايطاليا مهداً للنهضة والحركة الانسانية ، وعلى هذا الاساس يمكننا اعطاء فكرة عامة عن الاطار الزمني للنهضة وتحديد مراحلها الرئيسة .

ادت مجموعة عوامل محددة متفاعلة فيما بينها الى ظهور افكار النهضة في ايطاليا قبل غيرها . فقد ازدهرت هذه البلاد في اواخر العصور الوسطى بسرعة مدهشة . فمنذ القرن الحادي عشر غدت اقتصادياتها تعتمد بشكل متزايد على التجارة الخارجية وارتفعت طاقة سفنها في حوض بحر

الابيض المتوسط بوتائر سريعة لانها احتكرت كل تجارة اوروبا مع الشرق(١) الذي وجدت بضائعه النادرة من توابل وحرير وعطور ومصوغات ذهبية وفضية سوقا رائجة لها في كل الاقطار الاوروبية تقريبا ، جنى منها الطليان بالذات ارباحا طائلة جعلت « من كل واحد منهم اغنى من السابق »(٢) . فلم ينته القرن الثالث عشر حتى اصبحت ايطاليا تحتل مكان الصدارة في مختلف مجالات حياة القارة الاقتصادية والاجتماعية ، وتقدمت مدنها على غيرها بسرعة . ففي البندقية وحدها بلغ عدد العاملين في مجال صناعة الاقمشة حوالي ١٦ الف شخص وفي مجال صناعة السفن ٦ آلاف شخص(٤) . واذا كان الرقم الاول يعكس واقع التقدم الصناعي للبندقية فان الرقم الاخير يبين مدى ازدهار تجارتها التي

---

(١) J.R. Strayer and others, The Mainstream of Civilization, second edition, New York, 1974, P. 207.

(٢) H. Baron, The Crisis of the Early Italian Renaissance, Princeton, 1967, P. 365.

يخص المؤلف بالذكر اهل فلورنسا علما يقصد فترة من تاريخها تميزت بالحروب والغزوات المستمرة .

(٤) تتجسد مدلولات هذه الارقام وغيرها اذا قيمناها بميزان عصرها .

اصبح نقل بضائعها بحاجة الى اسطول كبير من السفن يمخر عباب البحر الابيض المتوسط ويصل الى مياه بحر الشمال . ولم يتردد البنادقة ، شانهم في ذلك شان سكان المدن والموانيء التجارية الايطالية الاخرى ، في ولوج كل ميدان تجاري يأتي منه ربح مضمون . فزاول العديد منهم تجارة الرقيق الابيض حيث كانوا يزودون حريم قصور الشرق بالبلقانيات ولم يترك قرار البابا حول حرمان « هذا العمل اللامسيحي » اي اثر في النفوس لانه كان يشكل « تجارة مربحة للغاية »(٥) .

ازدهرت جنوا وفلورنسا ومدن ايطالية اخرى بنفس المستوى ، بل ان الاخيرة فاقت البندقية في مجالات اقتصادية عديدة . فان النشاط الاقتصادي الواسع في مجالي الصناعة والصيرفة الذي دفع بفلورنسا الى موقع « يؤثر في اقتصاد كل اوروبا »(٦) قد جعل ظهور اولى المؤسسات ذات الطابع الراسمالي على صعيد العالم فيها امرا طبيعيا .

---

(٥) G. Cl. Sellery, The Renaissance. Its Nature and Origins, Madison, 1962, P. 18.

(٦) D. Hay, The Italian Renaissance in its historical background, Cambridge, 1966, P. 89.

ففي فلورنسا ، لا في غيرها ، ظهرت اولى العلاقات الراسمالية واولى المانيفاكتورات (الورشات) واولى الاتحادات المالية التي كانت تضم عددا كبيرا من الحرفيين والتجار وتقوم بالاشراف على شؤون الانتاج والتصدير . ففي القرن الرابع عشر كان عدد المحلات الحرفية الكبيرة الفلورنسية التي بلغت مرحلة الانتاج المانيفاكتوري في صنع الاقمشة وحدها يزيد على ٢٠٠ محل(٧) . وقد ادى هذا التطور الصناعي السريع الى ان يشكل العمال حوالي ٨٠٪ من مجموع السكان العاملين في المدينة(٨) ، وهو رقم لم يكن له شبيهلا في ايطاليا فحسب، بل على صعيد كل القارة الاوروبية والعالم .

وفي نفس المرحلة التاريخية ظهرت في فلورنسا اكبر المؤسسات الصيرفية الحديثة التي كانت تتعامل باقوى عملة ذهبية على صعيد القارة

(٧) البروفيسور ف . ف . سميونوف ، تاريخ العصور الوسطى ، باللغة الروسية ، الطبعة الثالثة ، موسكو ، ١٩٧٠ ، ص ٢٨٠ .

(٨) J. Gage, Life in Italy at the time of Midici, London, 1968, P. 101.

الاوروبية(٩) وفتحت باب الاعتماد امام التجار ، بل انها كانت تقوم باقراض الدول الاوروبية الاخرى بما تحتاج من اموال ، كما فعلت ذلك مرارا مع انجلترا . وكانت البابوية تعتمد على المصارف الفلورنسية في جمع وارداتها في اقطار اوروبية مختلفة(١٠) . وليس مجرد صدفة ان معظم المصطلحات المصرفية التي تستخدم في اللغات الاوروبية اليوم هي ايطالية الاصل والمنشأ جاء قسم منها عن طريق الاتصال بالعرب والمسلمين والبيزنطيين .

ومن مظاهر الازدهار الفلورنسي ان عدد سكان المدينة قد تضاعف بمقدار اكثر من مرتين خلال ما ينيف على القرن ونصف القرن . ففي اواخر القرن الثالث عشر بلغ عدد سكان المدينة حوالي ٧٠ الف شخص ثم ارتفع الى ما لا يقل عن ١٥٠ الف شخص في منتصف القرن الخامس عشر مما كان يشكل قفزة كبيرة حسب المقاييس الديموغرافية لاواخر العصر

(٩) سبقت فلورنسا في اواسط القرن الثالث عشر جميع المدن الايطالية في سك نقودها الذهبية التي عرفت بـ «الفلورين» وقد تاخرت البندقية عنها في هذا المضمار بما لا يقل عن ثلاثة عقود .

(١٠) ف . ف . سميونوف ، المرجع السابق ، ص ١٨٧ ، ٢٨٠ — ٢٨١ .

الوسيط عندما كان عدد سكان اكبر مدينة اوروبية يربو على حوالي ١/٨ الرقم الاخير(١١) .

وجدت هذه التطورات العميقة انعكاسات واضحة لها في طبيعة الانظمة السياسية القائمة آنذاك في المدن الايطالية المتقدمة . فان معظم العوائل الايطالية الحاكمة اصبحت على ارتباط وثيق بالتجارة والصناعة وتوليهما اهتماما اكبر مما توليه الارض والزراعة . واسرة ميديجي(١٢) الفلورنسية خير نموذج لهذا النوع الجديد من العوائل الحاكمة ومن الجدير بالذكر ان اصحاب المال ، ولا سيما التجار ، لم يكونوا يشكلون الاكثرية في بعض المجالس الرسمية في عدد من المدن الايطالية . ولكن حتى ذلك كان يعكس واقع الزخم الاقتصادي الجديد الذي امتص كل اوقات الراسماليين الطليان الذين قيموا « الوقت كاثمن شيء » بالنسبة لمصالحهم(١٣) . والمهم هو ان الواقع الجديد قد جعل بقاء اي نظام في المدن الايطالية يعتمد في كل الاحوال على موقف

(١١) نفس المرجع ، ص ١٨٢ .

(١٢) اصل الكلمة من "Medici" ذات الصلة بالعمل الصيدلي والطبي .

(١٣) J. Gage, Op. Cit., P. 57.

رجال المال ومؤازرتهم بعد ان غدت مؤسساتهم تشكل احيانا « دولة داخل دولة »(١٤) .

ما تقدم يعني ان عملية انحلال العلاقات الاقطاعية بدات في ايطاليا قبل غيرها وظهرت فيها بحكم ذلك متطلبات المجتمع الجديد قبل غيرها ايضا . وفي ذلك بالذات يكمن السبب الرئيس لتحول ايطاليا الى مهد للنهضة بحيث ان فلورنسا كانت تشكل اكبر مركز لنشاطاتها خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر وفيها ظهر عدد كبير من ابرز روادها واعلامها الافذاذ فاستحقت بحق لقب « عاصمة النهضة »(١٥) .

تفاعلت مع هذا العامل الاساسي جملة عوامل اخرى ساعدت في تسريع ميلاد ونمو عناصر النهضة في ايطاليا . فان هذه البلاد لم تكن مجرد حلقة وصل تجارية بين اوروبا والشرق ، بل انها كانت ، وبحكم ذلك ، تشكل في الوقت نفسه حلقة وصل ثقافية مهمة بين الجانبين . فعن طريقها انتقلت افكار ومظاهر حضارية شرقية مهمة تركت اثارا واضحة على معالم النهضة الاوروبية . وتعود بداية

(١٤) هكذا وصف احد بنوك مدينة جنوا الرحينه (Ibid, P. 57)

(١٥) ف . ى . روتينبورغ ، عمالقة النهضة ، باللغة الروسية ، لينينغراد ، ١٩٧٦ ، ص ٢٠ .

ذلك الدور بشكل خاص الى فترة الحروب الصليبية التي اجمع المؤرخون على تاثيرها الكبير في نقل مقومات حضارية كثيرة من الشرق الى الغرب انعكست ، اول ما انعكست ، في النهضة . وكان موقع جنوا بارزا في هذا المجال بشكل خاص ، فانها قامت منذ الحملات الصليبية الاولى باقامة مراكز تجارية لها في كل من سوريا وفلسطين .

عبرت عناصر الثقافة الشرقية ، وعلى راسها العربية الاسلامية ، عن ذاتها في افكار النهضة المبكرة وفي مكتسباتها المتاخرة سواء بسواء . فمن الثابت تقريبا ان اثنين من الرواد الثلاثة الاوائل للنهضة ، ونقصد بهما دانتي وبوكاشيو ، قد تاثرا في ابرز نتاجاتهما الفكرية بابداعات الشرقيين(١٦) . وفي المجال العلمي يكفي ان نورد هنا مثلا واحدا لا يخلو من مغزى عميق . ففي عصر النهضة بالذات اختار البرتغاليون من بين الكثيرين فاسكودي جاما لقيادة حملتهم التاريخية الى الهند وذلك لما كان يتميز به من صفات نادرة ، وقد زودوه باحسن ما عرفت اوروبا من سفن وبارقى ما توصل اليه فكر اهلها من خرائط والات فلكية يحدوهم في ذلك

(١٦) سوف نعود الى هذا الموضوع في الفصل الخاص باعلام النهضة .

امل تحقيق حلمهم الكبير . الا ان الملاح البرتغالي وجد نفسه ، مع ذلك ، بامس الحاجة الى عبقرية « ليث البحر » احمد بن ماجد الذي التقى به في مدينة ماليندي الكينية فسلمه عن قناعة تامة زمام قيادة حملته التي لولاه لما حققت ما ارادت بمثل تلك السرعة .

كان يوجد عامل مهم آخر جعل من التربة الايطالية مكانا اصلح لتفتق بذور النهضة فيها قبل غيرها . فكما هو معروف ان هذه البلاد قد تحولت منذ قرون سبقت عصر النهضة الى اهم مركز للكنيسة والعالم المسيحي باسره مما اثر على ظهور وتطور النهضة فيها من قطبين متناقضين الى حد ما . فان جانبا كبيرا من افكار النهضة انصب ، كما سنرى ، على نقد الكنيسة الكاثوليكية التي كانت روما تشكل قلبها النابض فتجسدت فيها ، اكثر من غيرها ، جميع الجوانب السلبية التي اثارت الاستياء في نفوس الاوروبيين . هذا من جهة . اما من الجهة الثانية فان الكنيسة نفسها اضطرت ان تضع في حسبانها التحولات الجديدة التي رافقت النهضة بشكل جدي ذلك لانها بدات تخشى ان تفقد تاثيرها في المجتمع فحاولت جذب بعض رجال النهضة الى جانبها واهتم عدد من البابوات من هذا المنطلق ومن بعض المنطلقات الذاتية كذلك (كحب

بعضهم للعلم ورعايتهم للعلماء) ؛ اهتموا بدراسة افكار الانسانيين عن كثب منهم ابن فارع اجراس الكنيسة السابق البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ — ١٤٥٥) الذي عرف بافكاره المتحررة وتقييمه الصحيح لواقع مرحلته فلم ير اي تعارض بين اهتماماته بثقافة ما قبل الميلاد مع اخلاصه للمسيحية ؛ فهو كان يبتغي ، عن ادراك ذكي ، التوفيق بين هذه الاخيرة و « خير ما في الحضارة القديمة واعادة بناء روما كعاصمة للعالم المسيحي »(١٧) . لذا لم يتردد نيقولا الخامس في نشر الوكلاء في ارجاء القارة الاوروبية بقصد جمع اكبر عدد ممكن من المخطوطات تحولت الى ثروة كبيرة لمكتبة الفاتيكان ؛ كما استعان بخدمات المؤرخ والمحقق البارع لورينزو فالا (Lorenzo Valla) (١٤٠٧ — ١٤٥٧) وغيره لتحقيق هذه المخطوطات.

وقد سلك عدد آخر من البابوات نفس النهج ، ولكن في نطاق اضيق ، مما لعب بعض الدور في احياء التراث القديم وتشجيع الانسانيين في مساعيهم وتكريس امكانات مجموعة من عباقرة النهضة لتخليد جانب من ابداعاتهم الفنية على جدران واقبية اشهر

(١٧) J.R. Strayer and others, Op. Cit., PP. 362-368.

الكنائس الايطالية من قبيل المثال كنيسة القديس بطرس المعروفة وقاعات الفاتيكان .
المعروفة وقاعات الفاتيكان .

يجب الا ننسى كذلك ان ايطاليا نفسها كانت مهدا للثقافة الرومانية القديمة التي اعطت التطور الحضاري الانساني الشيء الكثير مما تحول الى حافز معنوي مهم لرجال الفكر الطليان الذين لم يفقدوا كليا اتصالهم بماضي شعبهم العريق ، ولا سيما وان بلادهم احتفظت بآثار ذلك الماضي اكثر من اي بلد آخر . ومن المهم ان نلاحظ بهذا الصدد ان الآثار القديمة تلك كانت تعود الى اكثر عهود العصر القديم ازدهارا من الناحية الاقتصادية وديمقراطية من الناحية السياسية في اطار العلاقات السائدة يومذاك وهي كانت تبدو متفوقة من كل الاوجه على ما كان يسود عهد الاقطاع الاوروبي في مرحلة انحلاله وضموره فاتخذها مناهضو هذا الاخير حسب فهمهم اياها ووفق ما اسبغوا عليها من صفات هي لم تكن لتتميز بها دائما ، اداة لهدم اسس النظام المتعفن القائم . وفعلا انها ادت مثل ذلك الدور بنجاح الى حد كبير لان مجرد المقارنة البسيطة كانت تبين البون الشاسع بين قمة ازدهار عصر سابق وحضيض تحلل عصر قائم .

وما دمنا بصدد ذكر العوامل التي جعلت من ايطاليا رائدة للنهضة فيجب ان نشير كذلك الى

حقيقة مهمة اخرى هي ان اتجاهات عصرها وجدت لها انعكاسات سريعة في نتاجات الادباء والفنانيين الموهوبين المتميزين بالحس المرهف الذي يعبر عن مكنوناته بسرعة على عكس النتاجات العلمية والتقنية التي تحتاج الى وقت اكبر وتجارب عملية كانت غالبا ما تستغرق فترة زمنية طويلة بحكم بساطة وسائل الانتاج والعمل آنذاك . ثم ان ايطاليا عرفت بروعة طبيعتها التي اغنت لغتها الدارجة وادب شعبها مما تحول الى مصادر طاقة لابداعات ابنائها الخلاقة في شتى حقول النتاج الفني والادبي والى اساس لتذوق هذا النتاج في اشكاله المختلفة . ففي ذلك العصر ما كاد ان يرتقي شاعر شعبي ايطالي منصة ليلقي منها شيئا مما تفتقت به قريحته حتى يهم اصحاب الحوانيت الى غلق محلاتهم ليتمتعوا بما يلقيه ذلك الشاعر من نتاجاته(١٨) .

نتيجة لهذه العوامل الرئيسة ظهرت النهضة وتبلورت مقوماتها في ايطاليا قبل غيرها ؛ فاستطاعت ان تقدم لها من الخدمات وعناصر التطور ما لم يكن

(١٨) هربرت فيشر ، اصول التاريخ الاوروبي الحديث ، نقله الى العربية الدكتورة زينب عصمت راشد والدكتور احمد عبدالرحيم مصطفى ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٠، ص ٤١ – ٤٢ .

بامكان اي بلد اوروبي آخر تقديمه ، بحيث لم يكن حتى بامكان التدهور الذي اصاب الحياة الاقتصادية والسياسية لايطاليا منذ العقود الاخيرة من القرن الخامس عشر بسبب التدخل الاجنبي وتحول طرق المواصلات من البحر الابيض المتوسط ، لم يكن بامكانه وقف التطور العارم لمظاهر النهضة فيها . ويكفي ان نقول هنا ان العمالقة الافذاذ ليوناردو دافنيشي وميخائيل انجيلو (ميكلانجيلو) وروفائيل وغيرهم قد عاصروا فترة الانحلال هذه واعطوا في سنواتها وفي ظل ظروف شاقة ، نتطرق الى جوانب منها ، ما يبقى خالدا ابد الدهر . ولقد دفع مثل هذا الواقع ببعض المؤرخين الى الاعتقاد بان النهضة انما اقتصرت على ايطاليا وحدها . ولئن كان في ذلك بعض المبالغة الا ان حقيقة تأثير افكار النهضة الايطالية على البلدان الاخرى امر معترف به لدى الجميع . ولكن على اي حال فان ارتباط النهضة الوثيق بايطاليا يجعل منها الانموذج الامثل لتحديد اطارها الزمني بشكل عام حسب المراحل التالية :

١ – المرحلة المبكرة وتشمل اواخر القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر ؛

٢ – مرحلة السمو والتكامل وتشمل نهاية القرن الخامس عشر والربع الاول من القرن السادس عشر .

٣ ـ المرحلة المتاخرة في القرن السادس عشر .

ينطبق نفس التقسيم الى حد كبير على اقطار اوروبا الغربية كذلك . وكانت المرحلة الاولى هي مرحلة الميلاد والتكون والثانية هي مرحلة النضج والتكامل ، بينما تشهد افكار النهضة والحركة الانسانية في المرحلة الثالثة ازمة جدية نعود الى ذكر تفاصيلها فيما بعد . وقد تميزت كل مرحلة من هذه المراحل والنهضة بمجموعها بعدد من الخصائص الاساسية التي ميزتها في نقاط كثيرة عن الحركات الفكرية التي سبقتها والتي تلتها .

خصائص النهضة الاساسية :

تميزت النهضة ومعها الحركة الانسانية بخصائص بارزة جعلت منها ثورة ثقافية وفكرية ذات طابع خاص في التاريخ الانساني ، وسنحاول فيما يلي تحديد اهم جوانب تلك الخصائص بايجاز.

١ ــ لم تظهر النهضة في الاقطار الاوروبية في وقت واحد ، ذلك لان ميلادها اعتمد على مدى تطور العلائق في القاعدة الاجتماعية لكل قطر . فهي ظهرت في ايطاليا وفي اقطار اوروبا الغربية قبل غيرها ، بينما لم تمتد سوى ومضات منها الى بلدان اوروبا

الشرقية(١٩) والى مناطق البلقان التي كانت ترزخ تحت الاحتلال العثماني . ولكن حتى هذه الاقطار قد عززت مقومات النهضة بابداعات عدد من ابنائها المفكرين . ويكفي هنا ان نشير الى ان العالم الشهير كوبرنيكوس كان بولوني المولد والجنسية . بهذا المفهوم تكون النهضة حصيلة ثقافية لجميع الشعوب الاوروبية التي ارتبطت نسبة دورها فيها بظروفها الداخلية الخاصة . واذا اخذنا تأثيرات وانعكاسات الحضارات الشرقية بنظر الاعتبار يمكن آنذاك اعتبار النهضة حصيلة ثقافية انسانية في اطارها العام . وفي الواقع لا يصح الا ناخذ هذه النقطة بنظر الاعتبار جديا لانها تشكل في حقيقة امرها نتيجة منطقية للتفاعل المستمر بين الحضارات المختلفة في مجرى اشمل من النهضة نفسها من حيث التاثير والتاثر ، وهو امر لم يجد له ــ بكل اسف ــ اي انعكاس في مؤلفات الغربيين الذين وان كانوا يعترفون بفضل الشرقيين على التطور الاوروبي اللاحق الا انهم لم يقيموا النهضة بما فيه الكفاية باعتبارها انعكاسا لجهد مشترك . ومما يعطي راينا قوة اضافية هو ان تأثيرات النهضة نفسها كونت نقطة مضيئة

(١٩) تاثر الروس في بناء قصر الكريملن بفن العمارة الايطالية . وقد تم بناء سور وابراج الكريملن تحت اشراف معماريين ايطاليين في ١٤٨٥ ــ ١٤٩٥ .

جديدة في المجرى الحضاري الاشمل فلم تقتصر اشعاعاتها على جزء من اوروبا او القارة باسرها بل انها تسربت بسرعة وبقوة نسبيتين لتمتد باشكال مختلفة الى اجزاء العالم الاخرى حيث اسهم علماؤها ومفكروها في تطوير مكتسبات النهضة في اطر جديدة متوافقة مع مستلزمات وقيم المراحل التاريخية التالية .

٢ ـ ارتبطت سرعة تطور النهضة بشكل مباشر بسرعة تطور العلاقات والمظاهر الاقتصادية ـ الاجتماعية الجديدة حسب البلدان الاوروبية المختلفة . فان بدايات النهضة في انكلترا تعود ، مثلا ، الى القرن الرابع عشر ، الا ان احتدام الصراع الاقطاعي في البلاد والذي افضى الى حرب اهلية ضارية(٢٠) . قد عرقل بشكل جدي تطور النهضة الانكليزية خلال القرن الخامس عشر بحيث لم تنتعش مظاهرها من جديد الا في اوائل القرن السادس عشر وهو القرن الذي شهدت انكلترا فيه بداية تطور اقتصادي واجتماعي ملموس . وفي اسبانيا اعاق الانحلال السريع الذي هز بسرعة مختلف جوانب حياة شعبها مع عوامل اخرى ،

(٢٠) نقصد بها حرب الوردتين (١٤٥٥ ـ ١٤٨٥) .

اعاق نمو وانتشار النهضة فيها بنفس السرعة التي ظهرت بها هناك في وقت مبكر نسبيا .

خلاصة القول هي ان ميلاد النهضة ثم تطورها لم يجريا على نسق واحد ،بل اختلفا حسب البلدان والظروف ، والنهضة هي حصيلة جهد اوروبي في اطارها الضيق وعالمي في نطاقها الواسع .

٣ ـ بالرغم من وجود عناصر مشتركة قوية بين مظاهر النهضة في البلدان الاوروبية المختلفة الا انها مع ذلك تميزت في كل قطر ببعض الخصائص الذاتية الناجمة غالبا عن ظروفها المحلية التي حتمت او استوجبت التاكيد على مظهر معين اكثر من مظاهر النهضة الاخرى . ففي المانيا مثلا ركز الانسانيون على دراسة ما اسماه ارازمس(٢١) ب « فلسفة المسيح »(٢٢) ؛ فاتخذت النهضة الالمانية طابعا فكريا عميقا مس قضايا الكنيسة الكاثوليكية بشكل مباشر مما كان له ابلغ الاثر في حركة الاصلاح الديني هناك . بينما جرى في فرنسا تاكيد خاص

(٢١) من ابرز الانسانيين . للتفصيل عنه راجع الفصل الخاص باعلام النهضة .

(٢٢) "The Renaissance and the Reformation 1300 - 1600", Edited by D. Weinstein, New York, 1955, P. 19.

على دراسة القانون الروماني القديم وقد تحول ذلك الى سابقة مهمة لتطور الدراسات القانونية فيها(٢٢) . اما في انكلترا فقد استندت قاعدة النهضة الفكرية على القضايا الفلسفية والجمالية التي عبرت عن نفسها بشكل صارخ في مجالات الادب والاجتماع والمسرح ، ولم تخل النتاجات الفكرية فيها من طابع ديني ، لا سيما في فترةالحرب الاهلية التي شهدت الى جانب ذلك روايات تغنت كالسابق ببطولات الفرسان . وقد عبر الاتجاه الفكري الراديكالي عن نفسه في بعض البلدان بشكل اقوى مما كان عليه الامر في بلدان اخرى . ولكن ظل التشابه والتقارب بين مظاهر النهضة يشكل في كل الاحوال الطابع الطاغي لثقافتها على صعيد القارة الاوروبية .

٤ ــ لم يتقيد رجال النهضة ، ولا سيما في ايطاليا ، بالتخصص في مجال دون آخر . فغالبا ما كان الواحد منهم يتمسك بناصية حقول مختلفة من المعرفة والابداع الفني . وخير مثال على ذلك هو الرسام الخالد ليوناردو دافنشي الذي كان نحاتا

(٢٢) تشتهر الجامعات الفرنسية باهتمامها الكبير بالقانون منذ زمن بعيد ، حتى ان اللغة الفرنسية اصبحت تتميز بمكانة خاصة في تنظيم شؤون العلاقات الدولية .

بارعا واديبا لامعا ومهندسا متفوقا وعالما بارزا في الرياضيات وميكانيكيا اخترع عددا كبيرا من الالات والمكائن ، كما اهتم بالطب ، خاصة ما يتعلق بتشريح جسم الانسان . اما كوبرنيكوس فانه كان مفكرا وعالما ضليعا في مجال الفلك ، درس القانون والطب والفلك في بلاده وفي ايطاليا . وفي الاولى اشتغل في مجالات ادارية ومالية مختلفة الى جانب انغماسه المتواصل وعلى مدى ٤٠ عاما في تجاربه العلمية الصرفة . وتضعه آراؤه واستنتاجاته المهمة في مصاف مفكري عصره . ولم يكن ماكيافيللي مجرد مؤرخ او رجل سياسة فحسب ، بل كان ايضا فيلسوفا واديبا بارعا . وسنتعرض لنماذج اخرى من هذا القبيل عند بحثنا عن اعلام النهضة .

٥ ــ اولى رواد النهضة ، خاصة في المرحلة الاولى من مسار تطورها ، اهتماما كبيرا للغاية بالنتاج الفكري لعصر ما قبل الاقطاع ، اي ذلك العصر الذي كان المفكرون فيه متحررين من قيود الكثلكة فكانوا يهتمون بالحياة وبالانسان اكثر من اي شيء آخر . وقد نبع مثل هذا الاهتمام من جانب الرواد عن ايمانهم المطلق بانهم يتمكنون ، بعد قرون متواصلة من الاستبداد الفكري للعصر الوسيط ، من العودة الى الاهتمام بالحياة والتعمق في فهم الطبيعة والتعبير عنها والاستفادة منها فقط عن طريق بعث

التراث القديم . وقد بلغ تمسكهم باحياء مخلفات ذلك العصر حد ان الناس ظلوا طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر يعتبرون كل مظاهر النهضة مجرد بعث لنفس حقول المعرفة التي كانت تسود عهدي الرومان والاغريق بشكل خاص . اي انهم لم يعتبروا ميلاد تلك المظاهر استجابة طبيعية لحاجات اجتماعية جديدة تخطت متطلباتها حاجات المجتمعات القديمة بمراحل عديدة لذا احتوت على افكار وابداعات وابتكارات لم يكن بالامكان مجرد التفكير بها في العصر القديم لانتفاء الحاجة اليها اصلا . فان عوامل النهضة ، كما ذكرنا ذلك في مكان آخر ، كانت عميقة ومتشعبة بحيث لم يكن في الامكان ان تكون هذه الظاهرة الحضارية الجديدة مجرد احياء للقديم او نتيجة مباشرة لسقوط القسطنطنية وانتقال البيزنطيين مع مخطوطاتهم اليونانية القديمة الى ايطاليا كما يعتقد ويؤكد العديد من المؤرخين . الواقع هو ان « اوروبا استيقظت وغدت متلهفة للمعرفة الجديدة » ، وبما انها استيقظت واصبحت متلهفة الى الجديد من العلوم والمعارف فقد تشعبت توجهاتها لتحقيق تلك الغاية الرفيعة منها ان ابناءها انكبوا على « دراسة ما أهمل من ثروة كلاسيكية قديمة لم تنس نهائيا » . من هنا لا يمكن للنهضة

ان تكون سوى «مرحلة في مسار التطور الفكري»(٢٤) لا استنساخا للماضي كما يبدو ذلك بشكل أوضح فيما يلي من مواضيع .

٦ ــ كان من الطبيعي ان يرتبط جانب مهم من ابتكارات عصر النهضة العلمية والتقنية بمصالح البورجوازية النامية مما تجسد بشكل واضح في التطورات الكبيرة التي حدثت في المجالات المتعلقة بالملاحة كتطور صناعة السفن والتقدم الهائل في حقل الدراسات الجغرافية والفلكية التي كان يستحيل بدونها كشف الطرق التجارية الجديدة مع العالم القديم والجانب الغربي من الكرة الارضية . ففي هذه المرحلة بالذات ظهرت نشرات جغرافية مختلفة احتوت على معلومات علمية واجتماعية مهمة وطريفة للرحالة استهوت حتى القارىء البسيط .

---

(٢٤) A. J. Grant, A history of Europe, Part II, London, 1929, PP. 463, 465

في الواقع ان جرانت يقول في نهاية رايه المذكور انفا ان النهضة كانت تشكل « مرحلة في مسار التطور الفكري الاوروبي » ، الا اننا لم نقتبس الكلمة الاخيرة من مقولته هذه لعدم اتفاقها مع راينا الذي عرضناه ضمن كلامنا عن الخاصية الاولى من خصائص النهضة باعتبارها اشمل من كونها مجرد نهضة اوروبية واحرى ان تكون ذات طابع انساني .

وقد ازداد الاهتمام كذلك بالرياضيات والنبات وبعدد آخر من العلوم الطبيعية التي اسهمت باشكال مختلفة في تطوير الحياة الاقتصادية لبلدان اوروبا وفي تلبية حاجات ذلك التطور . وهي عززت — كما سنرى — اسس الايديولوجية البورجوازية الجديدة باثباتها ، على أساس التجربة ، بطلان الكثير من الاراء والافكار الاقطاعية البالية التي ظلت تسود المجتمعات الاوروبية على مدى قرون طوال .

٧ — يعتبر الانسانيون ايديولوجيي عصر النهضة ؛ فهم الذين خطوا الخطوة الاولى في وضع الاسس الدنيوية للثقافة الجديدة .

ينحدر اصل مصطلح الانسانية والانسانيين (Humanism - Humanistic) كتعبير اجتماعي فكري ظهر في القرن السادس عشر(٢٥) ، من الكلمة اللاتينية (Humanitas) التي تعني الانسانية حرفيا وهي مقتبسة بدورها من كلمة (Homo) التي تعني الانسان . وقد اراد اصحاب الاتجاه الجديد باختيارهم لهذا الاسم التاكيد على الطابع

(٢٥) تم تثبيته كمصطلح متداول في القرن السادس عشر ، والا فان بعض الانسانيين غالبا ما استخدموا (Humanitas) في نتاجاتهم قبل ذلك التاريخ .

الدنيوي للعلوم والاداب وعلى قيمة الفرد في الحياة بعد تجريده منها على مدى قرون طويلة ، وبشكل خاص بعد ان تحولت النقابات والاصناف الى تنظيمات جامدة فرضت قيودها عليه . فان أبرز خاصية للحركة الانسانية هي تاكيدها على الذات او شخصية الفرد(Individual - Individualism)(٢٦) .

ولم يات ذلك اعتباطا ، بل ان متطلبات الحياة في العصر الجديد قد فرضت تغييرا كبيرا على موقع وتصرف الفرد في المجتمع . فلم يعد بامكان الاصل والانتماء العائلي مثلا تحديد مكانة وامكانات ابناء الفئات الاجتماعية العليا كما كان عليه الامر في السابق عندما كان الاقطاعي ياتيه بحكم الانتماء الوراثي مورد كبير دون بذل جهد يذكر ، بينما اصبح لزاما على الراسمالي — خاصة في المراحل الاولى من ظهور الراسمالية — ان يعمل ويتحرك ويبذل النشاط ويدخل حلبة المنافسات ويلجا الى المناورات ويراقب وضع السوق وتقلباتها بدقة . وهو كان يفعل كل ذلك من اجل تطوير امكاناته التي اصبحت عرضة للزوال في خضم التنافس المتزايد . من هنا اصبح التاكيد على قيمة الفرد الكامنة في ذاته وصفاته لا

(٢٦) لم يقصد الانسانيون بمصطلح الـ (Individualism) معناه الحرفي — الفردية ، بل كانوا يقصدون به التاكيد على ذات الانسان او شخصية الفرد .

في انتمائه سمة بارزة لدى مفكري عصر النهضة الذين اعتبروا الانسان « مقياساً لكل ما يخلقه الانسان »(٢٧) ، فهو الذي « يعرف ما يفعل وكيف يستغل امكاناته ومواهبه الكامنة » لكي «يجني احسن الفوائد مما يتاح له من فرص ليشق طريقه في هذا العالم »(٢٨) . وبذا تحول الفرد في نظر الانسانيين الى اهم عنصر من عناصر الطبيعة فكانوا يؤكدون على قدرته الخارقة التي تجعل منه كائنا يستطيع « طرق كل الابواب » فان « كل الطرق مفتوحة امامه » ما دام « تكمن فيه بذور معارف شتى » .

ومن المنطلق نفسه اكد الانسانيون بشكل خاص على قضايا الفرد الحياتية وعلى وجهة نظره الى مظاهرها مع تمجيد افعاله التي كان من شأنها الترفيه عنه في حياة الدنيا . بل ان سعادة الذات كانت تبرر ، في نظر معظمهم ، سبل تحقيقها . فان

(٢٧) M. L. Bush, Renaissance, Reformation and the Outer World, London, 1967, P. 153.

(٢٨) R.R. Palmer and J. Colton, A history of the Modern World, third edition, New York, 1965, P. 51.

لورينزو ڤالا اكد بحماس على ان هدف الحياة انما هو السعادة وعلى الناس ان يصبوا اليها لكونها « ارادة الطبيعة نفسها » كما كان يقول(٢٩) . وقد اعطى تفسير مثل هذه الاراء مجالا للابتعاد احيانا عن بعض القيم المعنوية والانغماس بشكل متطرف في ملذات الحياة ، مما برز بشكل خاص بين افراد الاوساط المتمكنة في ايطاليا . مع ذلك يجب ان نؤكد ان الانسانيين كانوا يرمون من تاكيدهم على الذات اعطاء الفرد موقعه الطبيعي في المجتمع وهم في تمسكهم بقيم الماضي ما كانوا يستهدفون مجرد تحويل الفرد الى « رجل ثقافة » وحسب بل وتحويله كذلك الى « مواطن افضل وافيد »(٣٠) وفي ذلك ، دون شك ، توجه اخلاقي مهم يجب ان يقيم من خلال منظور اجتماعي ووطني عام .

(٢٩) من آراء لورينزو ڤالا ان « كل ما في الانسان ، من جسم وروح ، هو من تصميم الهي ، فلا جزء فيه آت من الشيطان » (مقتبس من :
E. Garin, Italian Humanism. Philosophy and civic life in the Renaissance, translated by P. Munz, Oxford, 1965, P. 50).

(٣٠) H. Baron, Op. Cit., PP. 451-452.

وعلى اية حال فان نظرة الانسانيين الى حياة الدنيا جاءت نقيضة للرهبنة التي كانت تقضي بتكريس كل ما في الحاضر من اجل الآخرة مما كان يشكل بدعة كنسية بعيدة عن الروح الاصيلة للديانة المسيحية وهو امر برهن عليه رجال الاصلاح الديني ومفكرو النهضة بشكل لا يقبل الجدل . ومن المفيد ان نذكر بهذا الصدد ان نمط حياة البابوات وكبار الاساقفة كان على طرفي نقيض مع ما ابتدعت افكارهم من تعاليم . لذا فان موقف الانسانيين في هذا المجال كان يشكل ثورة تحد كبيرة بوجه التزمت الكنسي الذي جرد الانسان من قيمه واهمية وجوده في هذه الحياة . بينما جعل الانسانيون من فهم الانسان وما يحيط به واحدا من اهم مقاصدهم ، وهذا ما تحول بالتالي الى عنصر محرك مهم لكل علم ومعرفة جديدة .

٨ ـ شكل الجانب الاكبر من الآراء والافكار التي رافقت النهضة النواة الاولى للايديولوجية البورجوازية . ولكن تجاوزت جوانب معينة من تلك الافكار احيانا اطار هذه الطبقة الجديدة لتعبر بشكل او آخر عن طموحات الفئات الاجتماعية الدنيا بما فيها الطبقة العاملة الوليدة ، بل انها ارتبطت في احيان اخرى ولاسباب ذكرناها بالكنيسة وبالاقطاعيين كذلك . وقد نجم عن ذلك بعض

الاختلاف والتناقض في مظاهر معينة للنهضة ولا سيما في الاتجاهات الفكرية التي برزت الى الوجود في عهدها . ولكن تبقى افكار النهضة في مجملها تمثل البورجوازية النامية . وبما انها كانت تناقض اساسا قيم المجتمع الاقطاعي فقد اتسمت بطابع ثوري واصبحت تعبر عن طموحات جميع الطبقات والفئات التي اتفق تغيير ذلك المجتمع مع مصالحها الاساسية .

برزت خصائص النهضة ومقوماتها هذه في ايطاليا اولا ومنها بدات تنتشر الى الاقطار الاوروبية الاخرى لتتطور وتتاقلم في توافق مع الظروف الخاصة بكل واحد منها . ولم يجر هذا التاثير بنفس المستوى ؛ ذلك لان الاقطار الاوروبية نفسها لم تكن في القرن السادس عشر مهياة لتقبل اشعاعات النهضة الايطالية بدرجة واحدة . فنرى انعكاسات محدودة متاخرة لعناصرها في مناطق البلقان واوروبا الشرقية لتزداد كما ونوعا وسرعة بشكل لا يقاس في انكلترا ولا سيما في فرنسا والاراضي المنخفضة(٢١) . وكانت سبل انتقال آثار النهضة من ايطاليا متنوعة للغاية(٢٢) . فبالنسبة لفرنسا ، مثلا ، لعبت غزواتها

(٢١) A. J. Grant, Op. Cit., Part II, P. 459.

(٢٢) R. Weiss, The spread of Italian Humanism, London, 1964, PP. 86-97.

العسكرية دورا مباشرا لاحتكاك النبلاء الفرنسيين باسلوب حياة وثقافة سكان المدن الايطالية المزدهرة فاقتبسوا منهم طرز ملابسهم واسلوب تعاملهم الاجتماعي كما تاثروا بآدابهم وعلومهم . وسرعان ما تحول البلاط الفرنسي نفسه الى مركز اساسي لتلقف وتطوير مظاهر النهضة الايطالية . فبتاثير من عمارتها ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ تم بناء القصر الملكي المعروف لوفر في باريس(٢٢) الذي ياتي حتى اليوم على راس قائمة المزارات الفكرية في العالم .

لعب طلاب العلم دورا مهما في مجال نقل آثار النهضة الايطالية المبكرة الى بقية انحاء اوروبا . فبعد ان بدات في فلورنسا منذ اواخر القرن الرابع عشر دراسة اللغة اليونانية القديمة باسلوب جديد لتنتشر الى اجزاء البلاد الاخرى بسرعة ، توافد العديد من ابناء الاقطار المجاورة على المدن الايطالية بقصد تعلم هذه اللغة وللوقوف عن كثب على نتاجات افلاطون وارسطو وغيرهما . وقد حمل هؤلاء عند عودتهم الى اوطانهم الكثير من بذور الافكار الجديدة

(٢٢) ف . ف . سميونوف ، المرجع السابق ، ص ٥٠٧ .

لتعطي ثمارا يانعة اختلفت عن اصلها بشكل او بآخر(٢٤) .

وكيفما كان الامر فقد تمخضت مراحل النهضة الثلاث في مهدها ــ ايطاليا ، وفي الاقطار المجاورة لها ، عن نتائج مهمة للغاية تركت آثارها على التطور الفكري والعلمي اللاحق لكل العالم . وبالطبع في الامكان تجسيد خصائص النهضة اكثر من خلال القاء بعض الضوء على نتائجها الاساسية وذلك بحكم التشابك الكبير بينهما مما يبدو واضحا من مضمون الفصل التالي .

(٢٤) "The Renaissance and the Reformation 1300-1600", PP. 9, 13.

الفصل الثالث

نتائـج النهضـة

ادت افكار النهضـة ونتاجاتها الى نتائـج اجتماعية وثقافية وعلمية وسياسية مهمة اسهمت بشكل فعال في تطوير المجتمع الاوروبي اولا والحضارة الانسانية ثانيا ؛ وقد كتب الخلود لبعض آثارها منذ لحظة ميلادهـا . وسنحاول فيمـا يلـي التعرض بايجاز الى الجوانب الاساسية لاهم النتائج التـي تمخضت عن النهضة في اطارها الشامل .

١ ــ هزت افكار النهضة وابداعاتها الخلاقـة اسـس القيم الفكرية للمجتمع الاقطاعي في العصـر الوسيط . فقبـل كل شيء كشـفت اهتمامات الانسانيين المتعددة الجوانب الكنيسـة الكاثوليكيـة وبدع رجالها على حقيقتها . واول ما يجلب النظـر في هذا المجال هو ان رجال النهضة اولوا دراسـة وترجمة الكتب الدينية القديمة جانبا كبيرا مـن

اهتمامهم وهذا بحد ذاته كان يعني كسر الاحتكار الذي فرضته الكنيسة على مدى قرون طويلـة بالنسـبة لهذا العمل . فبدأ اللغويون والعلماء مـن غير رجال الدين يضطلعون بهذه المهمة ويكشفون بها للناس قضايا في غاية الاهمية . فمثلا ان لورينزو فالا الذي استعان به شخص البابا لتحقيق بعض المخطوطات بين وجود اخطاء كبيرة في ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة اللاتينية وقد نشر بحثا خاصا بهذا الصدد . كمـا بين في بحث آخـر له ان « هبـة قسطنطين »(١) ، وهي الوثيقة التي كان يستند اليها البابوات في ادعائهم السلطة الدنيوية ، مزورة من اساسها وتعود الى القرن الثامن لا الرابع الميلادي مما ترك اثرا سلبيا كبيرا على سمعة البابوية . وقد اثبت لورينزو فالا انه لا يحق للبابوات التمتع باي سلطة دنيوية لا في الفاتيكان وروما ولا في الممتلكات البابوية ولا في اي جزء آخر من العالم ، بل تجرا ان يقول عنهم بكل صراحة انهم قدتحولوا من « قساوسة

(١) « هبة قسطنطين »(Donation of Constantine) وثيقة مزورة دونها مستشارو البابا في القرن الثامن ادعوا فيها ان الامبراطور الروماني قسطنطين (٣٠٦ ــ ٣٠٧) منح البابا سلطة دنيويـة على كل القسـم الغربي من الامبراطورية بما في ذلك ايطاليا . وقد حول البابوات هذه الوثيقة المختلقة الى اساس قانوني في صراعهم المرير مـن اجل السلطة الدنيوية .

الى قطاع طرق وذئاب»(٢). وفي الواقع لولا حماية بعض المتنفذين للورينزو فالا ولولا الخشـــية من النتائج المحتملة لما ترددت البابوية في تقديمه الـى محاكم التفتيش . وعلى اي حال فان عمل «صاحب الفكر الثاقب » لورينزو فالا كان من القوة والعمق بحيث يعتبره العديد من المؤرخين « بداية للدراسات الانتقادية العلمية الحديثة »(٣) . فمن خلال التمعن النافذ والمقارنة الدقيقة وجد فالا ان اللاتينية التي دونت بها الوثيقة تختلف في نقاط حساسة عما كان شائعا في عهد قسطنطين وان بعض المدن التي وردت اسماؤها في « الهبة » لم تكن قد بنيت بعد في ذلك العهد(٤) .

اسهمت هذه الاهتمامات والاستنتاجات المهمة في تجريد رجال الكنيسة من سلاح ماض هو تفسير مضامين الكتاب المقدس والمؤلفات الدينية القديمة كما يشاؤون وبناء تعاليم على اساسه بعيدة كـل

---

(٢) مقتبس من ا . ا . جوبير ، التطور اللاحق للحركـة الانسانية في القرن الخامس عشر ، باللغة الروسـية ، « تاريخ العالم » ، الجزء الثالث ، ص ٦٢٨ .

(٣) J. R. Strayer and others, Op. Cit., 354.

تاثر العديد من ابرز رجال الفكر بلورينزو فالا فيما بعد منهم ارازمس وفولتير واخرون كثيرون .

(٤) R. Weiss, Op. Cit., P. 43.

البعد عن الروح الاصيلة للديانة المسيحية . ومما سهل مهمة الانسانيين في هذا المجال ان العديـد منهم كانوا في الاصل من رجال الدين او درسوا في مؤسسات الكنيسة الكاثوليكية فوقفوا بثاقب نظرهم وبعمق على ثغرات هذا الجهاز الحساس وحددوا عن كثب المساوىء الكبيرة التي كان يتخبط فيها رجاله بدءا بالراس وانتهاءا بالقاعدة . ولقد بلـغ رد فعل بعض الانسانيين نحو الكنيسة حد انهـم رفضوا كل ما يتعلق بها . فان الاديب والمفكـر الفرنسي رابليـه (Rabelais) (١٤٩٤ — ١٥٥٢) لم يعاد الكاثوليكية فحسب بل انه لم يرض حتى بالاراء البروتستانتية الاصلاحية ، فسخر باسلوب لاذع من التعصب الديني الاعمى وانتقـد نواقص المذهب البروتستانتي مما عرضه الى هجوم مباشر من شخص الزعيـم البروتستانتي المعروف كالفن . وقد ذهب بعضهم الاخر الى مدى ابعد حتى من ذلك فتعرضوا بسبب آرائهم الى ارهاب السلطة والكنيسة التـي حرمت ، كما سـنرى ، تداول مؤلفاتهم ، كما اتهم العديد منهم بالهرطقة فادخلوا السجن وتعرضوا للتعذيب او احرقوا بالنار .

لم يقتصر رد فعل رجال النهضة على الكنيسة وتعاليمها ، بل انهم رفضوا جميع مظاهر الفنـون والاداب المرتبطة بالعصر الوسيط الذي اعتبـروه

فترة تخلف وجهالة ناطلقوا عليه اسم « العهد القوطي » وهو ما كان يعادل في المعنى اسم « البربر والبرابرة » انذاك ، علما بانهم لم يكونوا محقين في ذلك كليا ، لانه لم يخل ، وما كان بالامكان ان يخلو ، العصر الوسيط من مكتسبات وتطورات مهمة كانت نتيجة حتمية للتطور المستمر للجتمعات البشرية. وعلى اي حال فقد دفع موقف الانسانيين هذا ، الناس الى الا يروا في العصر الوسيط سوى ظلام دامس وقيود ثقيلة مما اسهم بشكل مباشر في تهيئة الجو الفكري الملائم للانتقال الى عصر جديد ارقى. ومن الجدير بالذكر ان الانسانيين هم الذين استخدموا لاول مرة مصطلح « القرون الوسطى » للدلالة على العصر الذي سبق النهضة واتبع عهد الرومان والاغريق حسب مفهومهم .

٢ ــ قلنا ان اهتمام الانسانيين بالتراث القديم كان يشكل واحدة من الخصائص الاساسية لعصر النهضة مما ادى الى نتائج علمية وثقافية مهمة للغاية ولا سيما ان ذلك التراث وان لم يهمل كليا في العصر الوسيط الا انه قد شوه الى حد كبير . فتحمس رجال النهضة في جمع نوادر المخطوطات المهملة في الكنائس والاديرة القديمة واصبح للمهتمين بالمخطوطات وكلاء يبحثون عنها في كل مكان ويدفعون لقاءها مبالغ مغرية . كما بدات حركة نقل واسعة

لمئات المخطوطات القيمة من القسطنطينية(٥) الى ايطاليا بشكل خاص فتوسعت المكتبات وتأسست اخرى جديدة . ولقد بذل الانسانيون جهودا خارقة في تحقيق هذه المخطوطات وترجمتها ونشرها وتمكنوا من تصحيح معظم النصوص القديمة المترجمة في العصور الوسطى حاذفين منها الاضافات المتقصدة كما قاموا لاول مرة بترجمة جميع النتاجات المعروفة للشعراء اليونانيين القدماء بما في ذلك اعمال هوميروس وكذلك النتاجات الفلسفية القديمة بضمنها معظم مؤلفات افلاطون . وكان من الطبيعي ان يترك كل ذلك آثارا واضحة على حقول مختلفة من المعرفة الانسانية وبشكل خاص في مجالات الدراسات الادبية والفلسفية والتاريخية التي ظهر بالنسبة لها عنصر مهم جديد ساعد على تنشيط الجدل الفلسفي وفي التوصل الى استنتاجات وحقائق تاريخية جديدة كما أوحى الى ادباء النهضة ببعض الافكار الجديدة .

في نفس العصر قام عدد من التجار الاوروبيين المتأثرين بافكار النهضة بجمع بعض الآثار القديمة

(٥) مع تقدم العثمانيين في آسيا الصغرى واقتراب خطرهم من عاصمة البيزنطيين القسطنطينية (استانبول) بدأ علماؤها بمغادرتها الى ايطاليا ناقلين معهم مجموعات قيمة من المخطوطات القديمة .

في الشرق وبنقلها الى بلدانهم حيث حظيت باهتمام كبير من لدن بعض الانسانيين ، وقد دشن ذلك بداية ظهور علم جديد في عصر النهضة يهتم بدراسة الكتابات والنقوش القديمة يعرف بال"Epigraphy"

٣ ـ شهد عصر النهضة ، ولا سيما في القرن السادس عشر ، تقدما كبيرا في حقل العلوم الطبيعية التجريبية . ففي العصر الوسيط لم يجر سوى تأكيد محدود على الكيمياء ، ذلك لان البعض كانوا يعتقدون بامكانية تحويل المعادن الاعتيادية الى اخرى ثمينة بواسطة تفاعلات كيمياوية(*) . وقد جرى اهتمام اقل من ذلك وباسلوب غير علمي بالفلك لعلاقته بالتنجيم ، بينما اهملت دراسة جميع الجوانب الاخرى من العلوم الطبيعية بل وشوه قسم كبير منها .

اما في عصر النهضة فقد غدا الاهتمام بالعلوم الطبيعية ـ مثلما ذكرنا ـ جزءا ملازما لمتطلبات المجتمع الجديد . فان البورجوازية النامية كانت بحاجة الى تقدم مثل هذه العلوم من منطلقين ؛ الاول لانها كانت تشكل عنصرا اساسيا لتطوير امكاناتها الاقتصادية نتيجة الاختراعات المهمة التي

(*) وهو ما عرف عند العرب بالسيمياء .

جاءت وليدة ذلك التقدم . اما منطلقها الثاني فقد ارتبط بالنتائج الثابتة المتمخضة عن المكتسبات العلمية التي عززت الى حد كبير اساس الافكار الجديدة بفضحها الاسس الواهية للفكر الاقطاعي .

امتدت آثار التطور العلمي الجديد الى مجالات مختلفة ، وقد احدثت انقلابا فعليا في حقول معينة منها . ففي مجال الفلك ، مثلا ، توصل العلماء في عصر النهضة الى نتائج باهرة بمعنى الكلمة . فان كوبرنيكوس (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) هو اول من وضع نظرية المجموعة الشمسية القائلة بان الارض تشكل احد توابعها وهي تدور حول الشمس وحول مدارها في آن واحد ؛ بينما كانت الكنيسة تعتبر الارض مركزا ثابتا للكون تدور حولها الاجرام السماوية ، بما فيها الشمس(٦) . وقد قام عدد من العلماء فيما بعد ، وخاصة جوردانو برونو (Brunno) (١٥٤٨ ـ ١٦٠٠) وغاليليو غاليلي (Galieli) (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢) الايطاليان ، بتطوير نظرية كوبرنيكوس . فان برونو قد اشار الى وجود مجموعات شمسية كثيرة اخرى الى جانب مجموعتنا الشمسية والتي لا يستطيع سكان الارض رؤيتها ،

(٦) اهدى نيكولا كوبرنيكوس بحثه الى شخص البابا ! .

كما اكد هو ، بسبب بعدهـا الكبير ، وهو نفس الاستنتاج الذي توصل اليه الفلكيون خلال العقود الاخيرة . ثم ان برونو توقع وجود الحياة فوق الكواكب الاخرى ايضا . اما غاليليو فقد وضع اسس العلم التجريبي الحديث ، فاثبت بالتجربة ان مدة ذبذبة البندول ثابتة مهما تغيرت سمتها ، وبين خطأ استنتاجات ارسطو حول حركة الاجسام فهي تسقط ـ كما اوضح ـ بنفس السرعة وبعجلة ثابتة مهما اختلف وزنها وايد نظرية كوبرنيكوس .

بهذا الاسلوب وبحكم استنتاجاتهم العلمية دشن هؤلاء العلماء بداية عزل العلوم الطبيعية عن اللاهوت .

حقق علماء النهضة مكتسبات مشابهة او قريبة في مجالات البحث الطبي (لا سيما التشريح) وفي الرياضيات والجيولوجيا والتعدين . فانهمك الجراحون في تشريح جسم الانسان وتطوير الاناتوميا وتوصلوا الى استنتاجات مهمة اسهمت جديا في تطوير هذا العلم المرتبط بحياة الانسان مباشرة والذي تحول الى موضوع اساسي للتدريس في بعض الجامعات الاوروبية . وبذلك لعب علماء النهضة دورا كبيرا في تحرير العقلية الاوروبية من الخرافات التي جعلت من شق الرؤوس وذرها

بالملح لطرد الارواح الشريرة وبتر الساق بالفاس من « انجع » وسائل العلاج الطبي[٧] .

لم تكن النتائج التي توصل اليها العلماء في حقول البحث الجيولوجي والتعدين قليلة الشان . فعلى سبيل المثال نذكر ان العالم الالماني جورج باوير (١٤٩٤ ـ ١٥٥٥) خلف لنا مؤلفا ضخما في هذا المجال اسماه « حول التعدين في اثني عشر كتابا » يعتبر من أهم المصادر الاصيلة لدراسة تطور وسائل الانتاج والتكنيك المستخدم لاستخراج المعادن خلال المراحل المبكرة للتطور الراسمالي الاوروبي .

٤ ـ ان واحدة من اهم نتائج النهضة هي انها تحولت الى عامل مساعد مهم في تكوين اللغات القومية الاوروبية الموحدة . ففي السابق كانت العلوم والاداب حكرا على فئات صغيرة من المجتمع كانت معرفة ابنائها للاتينية تعتبر من مظاهر تميزها عن عامة الناس وهي تحولت بحكم ذلك الى لغة التاليف والنقاش وحتى المخاطبة بين مثقفي العصر

(٧) يروي اسامة بن منقذ شواهد في غاية الغرابة عن الطب الاوروبي ايام الحروب الصليبية (للتفصيل راجع : الدكتور عبدالقادر احمد اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ، صيدا ـ بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٢٦٨ ـ ٢٧٠) .

الوسيط مما ساعد بشكل غير مباشر على نمو اللهجات المحلية وازدياد التباين بينها . ولكن مع تغير النظرة الى الفرد المجرد كأهم عنصر في المجتمع كان من الطبيعي أن تتغير النظرة ايضا الى كل ما يتعلق بحياة هذا الفرد المادية والمعنوية . وتأتي اللغة من بين القضايا الاساسية التي تأثرت مباشرة بآثار هذا التغيير ، اذ تحولت مظاهر النهضة الى مقومات مهمة لظهور لغات ادبية موحدة في اقطار اوروبية مختلفة . فلقد بدأ عدد كبير من رجال النهضة ، لا سيما الادباء منهم ، يكتبون للناس وبلغة الناس جاعلين من الثروة الفنية الكامنة في الادب الشعبي اداة مهمة للتعبير عن أفكارهم ومصدر وحي لنتاجاتهم . وخير مثال على هذا الاتجاه الجديد في الكتابة والتعبير هو فرانسوا رابلييه الذي كان ابرز علم بين رجال النهضة الفرنسيين . راعى رابلييه في كتاباته ذوق القارىء البسيط واعار ، من اجل ذلك، تقاليد الادب الشعبي المتداول اهتماما كبيرا وكتب باسلوب رائع ، غني وقريب الى حد كبير من الكلام الشائع بين الناس مما جعل منه ابرز أديب فرنسي في القرن السادس عشر ولقد اصبح لمؤلفاته ، مثل مؤلفات العديد من رجال النهضة ، رواج كبير بين الناس .

لم يعن مثل هذا الاهتمام النوعي الجديد

باللغات المعاصرة اهمال اعلام النهضة للغات القديمة، وعلى راسها اللاتينية التي لم تفقد أهميتها من وجهة نظر علمية بحتة حتى يومنا هذا . فقد تخصص عدد غير قليل من الانسانيين في دراسة اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية القديمة . وكان معظمهم يجيدون اللاتينية بطلاقة ويتباهون بذلك كتعبير عن تمسكهم بالتراث القديم الذي اعتبروه نقيضا للقيم السائدة فارادوا عن طريق اللاتينية اقتباس ما يمكن تحويله الى سلاح ماض ضد تلك القيم .

ولكن من المهم ان نلاحظ بهذا الصدد حقيقة اخرى هي ان معظم الانسانيين الذين كتبوا باللاتينية كانوا يكتبون في الوقت نفسه بلغاتهم القومية ، كما ان مؤلفاتهم اللاتينية كانت تترجم بعد فترة وجيزة لم تكن تتجاوز احيانا السنة الواحدة الى اللغة القومية بل والى عدد من اللغات الاوربية المعاصرة. والاهم من ذلك ان رجال النهضة قصروا الكتابة باللاتينية في الغالب على تلك الحقول والمواضيع التي كانت تهم العلماء والفلاسفة ورجال السياسة في الصميم ، لذا ارادوا مخاطبتهم بلغتهم دون ان يتغير هدفهم الاساس — هدم صرح الفكر الاقطاعي الكنسي . بل ان بعضهم كتب باللاتينية عمدا لانه كان يخشى استنكاف من يخاطب ويناقش قراءة نتاجاته فيما لو كتبها باللغة القومية الدارجة . مع

ذلك بدأت هذه الظاهرة تختفي بسرعة ؛ فقد قل عدد الذين كانوا يكتبون باللاتينية ، وبشكل خاص في مجال الانتاج الادبي ، الى ان توارى الامر كليا كظاهرة ثقافية ارتبطت بعصر معين . وفي الاخير ظلت اللغة اللاتينية تشكل مصدرا مهما لصياغة المصطلحات العلمية الجديدة وذلك لسهولة الاشتقاق والتركيب فيها ولسيولة التعبير عنها .

تفاعلت هذه الحقائق مع عوامل اخرى رافقت تكوين السوق الموحدة لتتحول الى عامل مهم في عملية تبلور اللغات القومية الايطالية والانكليزية والفرنسية والالمانية وغيرها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وقد ساعد نفس الشيء على نضوج الاداب القومية الاوروبية التي غدت في متناول الجميع ؛ على عكس نتاجات عصر ما قبل النهضة التي اقتصرت على النخبة من العارفين للاتينية القديمة .

٥ ـ اسهمت افكار النهضة ونتائجها باشكال مختلفة في بعث الشعور القومي بين ابناء العديد من الشعوب الاوروبية ؛ لا سيما لان تحويل اللغات الحديثة الى اداة للتعبير عن النتاج الفكري لعب دورا كبيرا في رفع وعي الناس الذين اصبح ذلك النتاج في متناولهم . ويزداد تأثير هذا العامل اذا اخذنا بنظر الاعتبار حقيقة ان الجانب الاعظم من

نتاجات عصر النهضة ؛ والادبية منها بشكل خاص ، كان يفضح عيوب المجتمع الاقطاعي ويبشر بالتراث باسلوب شيق يستهوي حتى القارىء البسيط الذي ـ اضافة الى كل ذلك ـ اصبح تداول الكتب في مقدوره بعد اختراع الطباعة بالحروف المتحركة في اواسط القرن الخامس عشر .

يدخل اختراع الطباعة الحديثة ضمن اهم المكتسبات العلمية والثقافية لعصر النهضة واستجابة رائعة لمتطلباتها . فان الاهتمام المتزايد باستنساخ المخطوطات القديمة باكبر عدد واحسن شكل ممكن دفع بالاوروبيين الى اقتباس الطريقة الصينية للطبع بواسطة الالواح الخشبية المحفورة . ومن جانب آخر حاول الانسانيون وانصار الاصلاح الديني الخروج على احتكار الكنيسة الكاثوليكية وقساوستها للكتب الدينية بالعمل الجاد في سبيل نشرها على اوسع نطاق ممكن حتى يتبينوا الناس مدى ابتعاد البابوية عن القيم الاصلية لدياناتهم . ومنذ ان اثبت دانتي بمؤلفاته امكانية تحويل اللغات القومية الى وسيلة للتعبير الفكري بدل اللاتينية ـ لغة الخواص ـ اشتدت الحاجة الى الكتب بشكل لم يسبق له مثيل ، ذلك لانها بدأت تأخذ سبيلها الى العوام كذلك .

استوجبت هذه العوامل ، مع غيرها ، تطوير وسائل نشر الفكر لتواكب المهمات الاجتماعية الجديدة . فاجرى الاوروبيون تحسينات ملموسة على الطبع بواسطة الالواح الخشبية ، ثم حدثت المفاجاة الكبرى في حوالي العام ١٤٤٥ عندما اهتدى الالماني يوحنا غوتينبورغ (١٤٠٠ ــ ١٤٦٨) الى صنع اول آلة طبع خشبية تعمل باليد وتستخدم الحروف المتحركة ، بلغت طاقتها القصوى طبع ١٠٠ صفحة في الساعة مما كان يشكل تطورا نوعيا هائلا في عالم الطباعة .

ولد اختراع غوتينبورغ وفي احشائه بذرة التطور وقوة النماء السريع وامكانات العطاء الواسع. فقد اسهم بقسط كبير في التقدم العلمي وبعث التراث وانتشار الافكار الرائعة للنهضة وما تبعها من فكر متحرر وفي تعميم الثقافة القومية وبلورة اللغة الادبية الموحدة لجميع الشعوب بالتتابع . وسرعان ما تحول الاختراع الجديد الى حافز معنوي كبير بل ومادي للاقبال على التاليف بعد ان غدت السوق مكان عرض الكتب للجميع بدل المكتبات الخاصة القليلة التي كان نطاق تداول محتوياتها محدودا للغاية . ولولا اختراع الطباعة لظلت الكتابة والقراءة والتعليم بشكل عام حكرا على النخبة من الفئات الاجتماعية العليا ورجال الدين ، بينما

اصبحت كتب التعليم بفضل الطباعة الحديثة في متناول ابناء الطبقات الفقيرة ايضا وذلك نتيجة توفرها وبفضل رخص اسعارها .

ومع ان غوتينبورغ وشركاءه حاولوا الاحتفاظ بسر الاختراع الجديد اطول فترة ممكنة الا انه سرعان ما انتشر في المانيا والاقطار الاوروبية الاخرى وعلى راسها مهد النهضة ايطاليا . فلم ينقض اكثر من نصف قرن ونيف حتى وصل مجموع ما طبع من الكتب بواسطة الحروف المتحركة في اوروبا حوالي ٣٠ الف كتاب معدل المطبوع من الكتاب الواحد ٣٠٠ نسخة ، بمعنى ان مجموع ما طبع من الكتب خلال اقل من ستة عقود كان ٩ ملايين نسخة مما شكل بداية مهمة لظهور أساس مادي عظيم للتطور العلمي والثقافي الهائل الذي غير وجه العالم بشكل سريع . فلا غرو ، والحالة هذه ، ان اعتبر المؤرخون عمل غوتينبورغ أعظم مكسب ثقافي قدمه الشعب الالماني للبشرية في القرن الخامس عشر فهو ، كما يقول احدهم « من النوع الذي يحدث مرة واحدة ولن يتكرر أبدا »(٨) .

٦ ــ كان من الطبيعي ان تؤدي التغييرات الجذرية والابداعات الخلاقة التي رافقت النهضة

---

(٨) G. C. Sellery, Op. Cit., P. 234.

الى تعميق مظاهر الصراع في المجتمعات الاوروبية المتقدمة ، ذلك لانها كانت تتميز بطابع تمرد صارخ على قيم الاقطاع ومساوىء الكنيسة الكاثوليكية وهي شكلت من هذا المنطلق نواة الفكر البورجوازي النامي . ثم ان طابع التمرد المذكور لم يقتصر على حقل دون آخر ، بل انه عبر عن نفسه موضوعيا في مجال العلوم التجريبية البحتة البعيدة عن السياسة والادب بشكل اكثر بروزا من معظم المجالات الاخرى لان النتائج العظيمة التي توصل اليها العلماء فضحت بشكل مباشر الافكار المتخلفة التي كانت تبشر بها الكنيسة والتي ظلت تقيد عقول الناس على مدى قرون طويلة . لذا لم يكن عبثا ان لا تقتصر مواقف الكنيسة والسلطة المتشددة للغاية على اولئك الانسانيين الذين جاهروا لكثلكة عداءهم الصريح بل تمتد الى عدد كبير من اعلام النهضة البارزين وعلى راسهم بعض العلماء . ومن المؤشرات المهمة لهذه الحقيقة النشاط الكبير الذي زاولته محاكم التفتيش في هذه الفترة بالذات . فانها اعلنت ، مثلا ، بطلان افكار كوبرنيكوس وحرمت كتابه الذي قضى العالم الكبير كل حياته في تاليفه ، كما فعلت الشيء نفسه مع غاليليو الذي حوكم وارغم على نبذ تاييده لنظرية كوبرنيكوس عن دوران الارض حول الشمس .

وقد قضى العديد من علماء ومفكري النهضة عمرهم داخل اقبية السجون الموحشة او صعدوا على اعواد المشانق اذ احرقوا وهم احياء . فان العالم والمفكر الايطالي برونو قضى ثماني سنوات بين جدران محاكم التفتيش واقبية تعذيبها المرعبة ثم بعدها حرقه علنا في احدى ساحات روما في تشرين الثاني عام ١٦٠٠(٩) ... اما العالم اللغوي الفرنسي دوليه فقد نفذ فيه حكم الموت حرقا باحدى ساحات باريس في آب ١٥٤٦ لانه بشر من خلال مطبعته الناجحة بافكار الانسانيين المتحررة .

ولكن عبثا حاول الظلاميون حجب الشمس بالغربال وارجاع عقارب الساعة الى الوراء . والدليل المعبر الذي يستحق الذكر هنا هو ذلك النصب التذكاري الشامخ لدوليه الذي رفع عنه الستار عام ١٨٨٩ في احتفال مهيب بنفس المكان حيث اتت فيه النيران على جسده دون ان تتمكن من فكره السامي وطموحه العالية . وهكذا تحول موقع ماساة العام ١٥٤٦ الى ساحة جميلة بباريس يزينها تمثال ليروي بصمت مدى قصة رائعة للاجيال .

(٩) دافع جوردانو برونو بثبات عن افكاره وآرائه فتميز بشجاعة خارقة وصلابة نادرة ، حتى انه توجه الى الحكام ابان صدور حكم الموت عليه حرقا قائلا لهم بتهكم : « اغلب الظن انكم تصدرون حكمكم بخوف اكبر مما اتلقاه به انا » .

عند بحثنا عن اعلام النهضة سوف نرى نماذج اخرى من ضحايا محاكم التفتيش والانظمة الاقطاعية التي لم تات اجراءاتها المتشددة مجرد تعبير عن تعميق الصراع بين القديم والجديد ، بل انها عبرت بقسوتها ايضا عن محاولات يائسة للحفاظ على قواعد نظام نخرت الافكار الجديدةاسسه من الاعماق وبشكل اصبح من المتعذر عليه الصمود طويلا .

٧ ـ ادت النهضة الى حدوث تغيير جدي في الوضع الاجتماعي للمراة الاوروبية . وقد نجم ذلك عن عاملين مهمين ارتبط اولهما بنظرة الانسانيين الى موقع الفرد في المجتمع الذي تشكل المراة نصفه او اكثر ونتج الثاني منهما عن الحاجة الى جهود المراة في الانتاج ، ولا سيما في بدايات ظهور الراسمالية عندما ازداد الطلب على الايدي العاملة بشكل لم يسبق له مثيل . وعلى اي حال فقد نزلت المراة الاوروبية في عصر النهضة الى ميادين الانتاج الصناعي والتاليف والعمل المسرحي والنقاش الفلسفي واصبحت تتمتع بمكانة اجتماعية اسمى من السابق ، وبشكل خاص في المدن الايطالية

المزدهرة التي ساعدت ظروفها على ان تحصل المراة فيها على درجة عالية من الثقافة(١٠) .

لم تقتصر نتائج النهضة والحركة الانسانية على ما سبق ذكره ، بل انها ادت في الوقت نفسه الى نتائج اخرى كثيرة في مجالات الابداع الفني والتطور الفكري والانتاج الادبي وغير ذلك من حقول المعرفة الانسانية المهمة التي تتجسد بشكل واضح من خلال استعراضنا لحياة وابداعات عدد من ابرز اعلام النهضة الخالدين .

(١٠) "Renaissance and Reformation, 1300-1648", Edited by G. R. Elton. second edition, New York,-London. PP. 85-86.

الفصل الرابع

الخالـــدون

مما تقدم يبدو واضحا ان النهضة لعبت دورا كبيرا للغاية في الحياة الثقافية لاقطار اوروبا واثرت عن طريقها في مجمل الفكر والفن الانسانيين ، وهي تشكل بذلك نقطة مضيئة في الحضـــارة البشرية . فالى عهدها تعود النتاجات الادبية والفنية الخالدة التي بلغت قمة الروعة والجمال ، واليها يعود فضل التطورات الكبيرة في مجال احياء التراث القديـــم والتقدم الكبير الذي امتدت آثاره الى مختلف حقول العلم والمعرفة بما فيها الفلسفة والعلوم الطبيعيـــة والانسانية والتربوية والقانون والسياسة وغيرها .

اشتركت جميع الشعوب الاوروبية ، كمـــا سبق الذكر ، في خلق مقومات النهضة وذلك بمـــا قدمت لها من ثروة غنية كامنة في تجارب الماضـــي والفولكلور الشعبي والتقاليد القومية واخيرا بمـــا

قدمت من ابناء بررة مستعدين للعمل والتضحيـــة بتفان اصيل في سبيل دفع عجلة التطور الاجتماعي خطوات كبيرة الى امـــام . فقد اكد العديـــد من الانسانيين على ضرورة العمل الجاد ، ولا سيما انهم كانوا يرون ان الانســان لا يولد عالما او مفكرا انمـــا يستطيع بلوغ مثل هذه المراتب وغيرها عن طريق بذل الجهد المتواصل . وكانوا هم خير نموذج لذلك الانســان الاقرب من الكمال الذي كان يعمل ليل نهار ويخدم باخلاص ويحاول ان يفيد ويستفيد بكامل طاقاته . ويمكن ان نورد بهذا الصدد بعضا مـــن اقوال الانســاني الايطالي بيير باولو الذي كان يرى غاية السعادة في العمل الدؤوب ، حتى انه شـــبه الليل بالموت « ما دام يذهب الوقت في النوم هباءا » حسب قوله . ومن آرائه ايضا ــ وهو كان يخاطب في ذلك العلماء بشكل خاص ــ ان من ينضح العرق يتغلب على الصعاب وينال العلى(1) .

بمثل هذه الروحية العالية عمل وانتج رجال النهضة . وفي الواقع لا يمكن قطعا حصـــر اسماء جميع مفكري ورسامي وادباء وعلماء ذلك العصر ، اذ

(1) ن . ف . بيفياكينا ، الانساني بيير باولو فيرجيريو ــ العمل الفكري والعلماء ، ــ « اوروبا في العصور الوسطى . اقتصاد ، سياسة وثقافة» ، باللغة الروسية ، موسكو ، ١٩٧٢ ، ص ٢٤٢ .

توجد مئات من الاسماء اللامعة التي تركت اثارا خالدة في شتى مجالات حقول المعرفة سبق أن تطرقنا الى عدد قليل منها من خلال عرضنا لخصائص ونتائج النهضة . وسنحاول فيما يلي اعطاء فكرة عامة عن نشاطات عدد آخر من هؤلاء العمالقة الافذاذ بشكل يمكن من خلاله تقديم صورة معبرة عن واقع النهضة في مراحلها المختلفة .

رواد النهضة

كان من المنطق أن يظهر رواد النهضة والحركة الانسانية في ايطاليا قبل غيرها . فقد وضع المفكرون الثلاثة دانتي وبترارك وبوكاشيو هنا اللبنات الاولى في صرح النهضة الشامخ مما يعطي نشاطاتهم وافكارهم اهمية خاصة يمكن الوقوف من خلالها على الابعاد الاساسية للمرحلة المبكرة من ميلاد النهضة .

دانتي (١٢٦٥ – ١٣٢١) :

دانتي اليجيري شاعر ايطالي معروف ويعتبر باتفاق الآراء المبشر الاول للنهضة . ولد في فلورنسا واشترك بنشاط في حياتها السياسية وكان يميل الى الاتجاهات المعارضة هناك حتى انه حكم غيابيا لهذا السبب فبقي يعيش بعيدا عن مسقط راسه الى ان وافاه الاجل حيث دفن في رافنا .

كان دانتي واحدا من الثقف مثقفي عصره(٢) مما اعطاه امكانية فهم جوانب مهمة غير مرئية من محركات الحياة والمجتمع لم يكن من السهل ادراك كنهها انذاك . فقد وضع اليد بسرعة على الدور الكبير الذي بامكان اللغة القومية اداؤه في التحريك من اجل التغيير ، فاصبح ابرز رائد للدعوة الى استخدام اللغة الايطالية الدارجة في النتاج الادبي بدل اللاتينية مما وجد له صدى واسعا بين الاوساط المثقفة خاصة في فلورنسا حيث بدا المثقفون يحسون « حلاوة الاسلوب الجديد » حسب وصفهم اياه(٣) . وكان لمؤلفات دانتي بالذات الدور المبكر المهم في تثبيت هذا الاتجاه الجديد لانه تمكن باسلوبه الموسيقي الاخاذ من دفع اعداد متزايدة من الادباء والقراء الى الاهتمام به وتذوقه فوضع بذلك بداية مهمة لاخراج الادب من النطاق المدرسي الضيق للعصر الوسيط اذ لم يبق هذا العنصر الفكري المهم محصورا ضمن حلقات التدريس الضيقة وحكرا

(٢) حسب تاكيد بعض المؤلفين تحتاج دراسة دانتي وترجمة الكوميديا بالنسبة للمتخصصين الاوروبيين ، حيث الاجواء العلمية المناسبة ، الى وقت يتراوح بين الـ ١٥ و الـ ٢٥ عاما .

(٣) ا . ا . جوبير ، دانتي ، باللغة الروسية ، « تاريخ العالم » ، الجزء الثالث ، ص ٦٢١ .

على الفئة المختارة من عارفي اللغات القديمة ؛ بل غدا بطاقاته الخلاقة في متناول الجميع تقريبا .

بلغ حماس دانتي للغته القومية حد انه لم يكتف بالتاليف بها فحسب بل جلب كذلك انتباه الناس والمختصين اليها كعالم لغــوي بان كرس لدراستها وللتاكيد على اهميتها وقوة ادائها عددا من البحوث منها كتابه « حول اللغة الدارجـة »(٤) وأول كتاب في المقارنة عن اللغة الرومانية وشعرها . وما اروع تشبيه دانتي للغته القومية بـ « خبـز الشعير » ؛ لان هذا بالذات كان يشبع بطون الالاف المؤلفة من بسطاء الطليان يومذاك ، بينما كانت انواع الخبز الاخرى ، شانها شان اللغة اللاتينية ، حكرا على فئة قليلة من الناس . ان في هذا التشبيه الموفق مغزى عميقا من شانه اعطاء صورة معبرة واضحة عن واقع توجهات هذا الشاعر العظيم . فهو اراد ان يكتب للناس ، للشعب الايطالي ، فاختار لغـة الناس لمخاطبتهم وتوجيههم ، ووقف بثبات المؤمن ضد الذين يحاولون الانتقاص من « لغتنا الشعبية الجميلة » كما كان يقول .

(٤) الفه باللاتينية لانه اراد به جلب نظر الكتاب والعلماء الى امكانات اللغة الايطالية في التعبير فقد كان يخشى استنكاف هؤلاء تداوله فيما لو كتبه بالايطالية .

كتب دانتي باكورة نتاجه الادبي «حياة جديدة» باللغة الايطالية وهي عبارة عن مجموعة قصائد مع تعليقات نثرية يروي فيها الكاتب قصة حبه لفتاة احلامه الفلورنسية باتريس بورتيناري والتي بدات منذ لقائه الاول بها في التاسعة من عمره ولم تنتـه بوفاتها في الثامنة عشرة من عمرها بل تحولت الى مصدر وحي للعديد من ابداعاته الشعرية . لاتقتصر اهمية هذا الكتاب على شكله ومضمونه الرفيعين فحسب بل المهم فيه ايضا ان صاحبه اثبت بالتجربة امكانية التحدث للناس عن القضايا الحياتية الواقعية باسلوب ادبي يفهمونه كما يعيشونه فجاء ذلك بمثابة خروج جريء على الطوق المدرسي التقليدي السائد الذي حدد مجال التحرك الادبي بشكل جامد .

بلغ ادب دانتي الذروة شكلا ومضمونا في رائعته « الكوميديا » التـي عرفت من بعـده مباشرة بـ « الكوميديا الالهية » ، فقد رصعها بدرر اللهجات الايطالية ، مع تاكيد خاص على اللهجة التوسكانية ، وبروائع الحكم والامثــال الشعبية وبالنمــاذج التاريخية الحيوية وهي تميزت ، نتيجة كل ذلك وغير ذلك ، باسلوب من البناء الفني المتناسق لم تبلغه اي لغة أوروبية اخرى يومذاك . فلا غرو ان تحولت « الكوميديا الالهية » الى القاعدة الرصينة للغة الادبية الايطالية الموحدة المليئة حتى اليـوم

بحكم وامثال وتعابير دقيقة استخدمها دانتي ببراعة في « الكوميديا » .

تتعدى اهمية « الكوميديا الالهية » المؤلفة من مائة انشودة تضم اكثر من اربعة عشر الف بيت ، الناحية اللغوية الى حد بعيد جدا . فقد وردت فيها افكار اجتماعية وسياسية ـ فلسفية عميقة في مضمونها المليء باشجع تحد صارخ للقيم البالية وبتطلعات ذكية نحو عالم افضل باسلوب مستعار . فالكوميديا ملحمة شعرية خيالية ينتقل صاحبها من خلالها الى العالم الثاني المؤلف من ثلاثة اقسام او مراتب هي الجحيم او النار والمطهر او الاعراف والفردوس او النعيم . ويختار دانتي من الشاعر الروماني الوثني فيرجيل (٧٠ ـ ١٩ ق٠م٠) دليلا له خلال مروره باوار الجحيم ورحاب الاعراف حتى بلوغه اعتاب الفردوس حيث كانت حبيبته باتريس في انتظاره .

لم يات اختيار دانتي لفيرجيل دليلا له في جولته عبثا ، بل كان في الامر مغزى عميق . فقد عاصر فيرجيل ايضا غروب عصر وتمنى في اشعاره بزوغ فجر « العصر الذهبي » وتغنى بتقاليد روما القديمة التي آمن بعظلمتها فاحبها من الاعماق . ثم ان فيرجيل كان بخلقه الرفيع وتواضعه الاصيل ونشاطه الجم واخلاصه النادر يمثل خير نموذج

لانسان عصره في نظر اعلام النهضة . مع ذلك ترافق دانتي الى الفردوس أحب انسانة من مجتمعه . ولا يمكن تجريد ذلك ، بالرغم من قوة خيال الشاعر **وتعلقه بحبه لباتريس وتمسكه بتلابيب المسيحية ، من عنصر الاعتزاز بالفرد الجيد المعاصر له الذي جعله في الجنة جنبا الى جنب أحب شخص الى** قلبه .

تتميز « الكوميديا الالهية » بطابع موعظي ديني عام لم يكن بامكان دانتي التجرد منه ، الا انها تحتوي الى جانب ذلك على اقسى وابلغ نقد ادبي وجه الى الكنيسة ورجالها حتى ذلك اليوم . فقد كرس دانتي الانشودة الاولى التي تدور احداثها في الجحيم لتعرية انانية وتفسخ وقسوة واطماع رجال الكنيسة . والاهم من ذلك هو التقاء دانتي في الانشودة التاسعة عشرة وفي سعير النار ايضا بعدد من البابوات والقساوسة الذين باعوا صكوك الغفران جنبا الى جنب مع الذين اجرموا في حياة الدنيا او خانوا الاوطان مع اسوا النماذج البشرية من سراق وقطاع طرق وغشاشين ومنافقين افاكين وغيرهم . وجعل دانتي من النار الازلية دارا ابدية للبابوات الذين يذكر في ملحمته التقاءه بهم وتحدثه معهم . بينما اولى شعراء الوثنية وفلاسفتها في المقابل احتراما كبيرا لانهم خدموا العلم والمجتمع

باخلاص فاختار واحدا منهم دليلا له ليصبح هذا النموذج للمفكرين القدماء أقرب شخص اليه بعد حبيبته باتريس التي هي في الوقت نفسه نموذج ، مثلما ذكرنا ، لانسان عصره . وقد إختار الاعراف مكانا للاقدمين المخلصين بما فيهم كل حاكم روماني وثني خدم بلاده او ابتعد عن الفساد والرشوة . ولا شك في ان الحس الديني المرهف لدانتي وتبجيله المسيحية قد لعبا دورهما الكبير في ان جعل الاعراف ، لا النعيم ، مكانا لهؤلاء ، الا ان ذلك لايخلو ايضا عن نوع من التفضيل للفرد المخلص المعاصر له . ومهما يكن من أمر فان المهم هو احتواء صور « الكوميديا الالهية » الجريئة على نقد صريح ولاذع للكنيسة مع دعوة بليغة للناس الى التمسك بالخلق الفاضل وبالقيم الوطنية الرفيعة ، فهؤلاء فقط هم الذين ينعمون بالفردوس في الكوميديا بغض النظر عن مكانتهم الاجتماعية السابقة في حياة الدنيا .

كل ذلك مهم ، واكثر من مهم . لكن «الكوميديا الالهية » تعتبر ايضا اول قصة تحتوي على مضمون وطني عميق مع تعبير واضح عن الوجود القومي للشعب الايطالي . فلقد كان صاحبها يحلم بالوحدة الايطالية وبالقضاء على الحروب والنزاعات الداخلية

ويميل الى الغاء السلطة الدنيوية للبابوات(٥) وكان كل ذلك يدخل ضمن المستلزمات الاساسية لتطور البلاد السياسي .

يحس المرء في « الكوميديا الالهية » بظهور بوادر ومؤشرات فكرية لعصر جديد . فبالاضافة الى كل ما تقدم يتحدث دانتي من خلال رائعته وعبر الحوار الذي يجريه مع مختلف الشخصيات التي يتصور الالتقاء بها ، يتحدث في الواقع عن الانسان الجديد في مدن ايطالية متطورة ويؤكد بصور مختلفة على ذات الفرد وقيمة الانسان « الذي ولد ليحلق عاليا » . وهو يرى بعمق جمال الطبيعة ويستقي منها بالذات المناظر الخلابة التي يقع ناظره عليها في رحاب الفردوس الفسيحة .

ما سبق يبين كيف ان « الكوميديا الالهية » كانت تتسم بحركة متحمسة نحو الامام ، وهي مليئة بروح متفائلة تبشر عن ايمان بامكانية ايجاد حلول لجميع مشاكل المجتمع الايطالي . وهذا ما دفع دانتي الى ان يختار لملحمته الشعرية اسم « الكوميديا » الذي كان ادباء العصر الوسيط

---

(٥) قبل ان يثبت لورينزو فالا زور « هبة قسطنطين » انتقد دانتي هذه الوثيقة بعنف دون ان يعرف انها مختلقة (راجع : R. Weiss, Op. Cit., P. 43)

يطلقونه عادة على كل نتاج فني يحتوي على نهاية متفائلة تبشر بالخير والسعادة(٦) ، كما ينطبق على مضمون الملحمة المفهوم الفني الاخر للكوميديا التي تستهدف انتقاد سلبيات المجتمع والعادات البالية باسلوب ساخر . اما نعتها بالالهية فقد اطلقه عليها فيما بعد المعجبون بالملحمة تعبيرا عن كمالها الذي ظهر في قوة مضمونها وبعد اهدافها وسمو افكارها ودقة تعابيرها وتصويرها الرائع للانسان والطبيعة وصياغتها الموسيقية الجذابة ومن ثم الجو الروحي السامي الذي تدور فيه احداث الملحمة . وخلاصة القول ان « الكوميديا الالهية » كانت بحق « المرآة التي عكست كل معارف وآمال ومشاعر العصر »(٧) باروع تعبير واصدقه .

بالرغم من كل ذلك لا تخلو مواقف دانتي ونتاجاته ، بما فيها « الكوميديا الالهية » من بعض التناقض ومن حلقات ضعيفة . فهو قد ادرك في المنفى وبعد ان جاب مناطق ايطالية مختلفة ، ادرك اسباب وهن بلاده السياسي فدعا – وكان على حق في ذلك – الى المواطنة الموحدة ونبذ الخلافات ،

(٦) اصل (الكوميديا) مقتبس من كلمة (Komodia) اليونانية القديمة التي كان يقصد بها في البداية الاغنية المرحة .

(٧) A. J. Grant, Op. Cit., P. 464.

لكنه بشر الى جانب ذلك ببعض الاراء المثالية كوسيلة اساسية ناجمة في رايه لايجاد مخرج لتلك المشكلة السياسية العويصة من قبيل التطوير الذاتي للقيم المعنوية لدى الانسان وتاصيل الحب للعلم بين جميع الناس . وقد ضم آراءه السياسية هذه بشكل خاص في كتابه « الوليمة » الذي لم ينته من تاليفه . ثم ان عدم توفر الظروف للقضاء على الانقسام والنزاع الاقطاعي الداخلي جعل دانتي يفكر في نظام ملكي موحد للعالم تكون بلاده مركزا له ويجعل من الامبراطورية الرومانية المقدسة التي كادت ان تصبح اقرب الى اسم دون مسمى « اعظم امل للعالم المسيحي » وخير وسيلة لتحقيق الوحدة الايطالية . ومن هذا المنطلق الف كتابا باللاتينية عن الملوك ضمنه انتقادات لاذعةللبابوية بينما احاط سلطة الامبراطور وامكاناته واهدافه بهالة مثالية بعيدة عن الحقيقة والواقع . لكن حتى ها هنا يجب الا ننسى ان دانتي وضع « ضرورة توافق » ما كان يدعو اليه من نظام سياسي « مع مصلحة كل العالم » على راس قائمة دواعي اقامته(٨) وانه ظل حتى الرمق الاخير يدعو باخلاص الى ان يسود السلام العلاقات الدولية .

(٨) للتفصيل راجع :
"The Renaissance and the Reformation 1300-1600", PP. 39-40.

هكذا نرى ان دانتي الذي وضع اليد بمهارة على سلبيات مجتمعه وحدد بعمق اسبابها واقترح العديد من المستلزمات الواقعية لاستبعادها نـراه يتمسك ايضا ببعض الافكار المثالية وحتى المتخلفة يعتبرها وسائل عملية لتحقيق احلامه الرفيعة . وهذا بالذات يفسر لنا بعض الجوانب السلبية او المتناقضة في افكاره التي اصبحت تعبر ، بحكم ذلك، عن مصالح فئات اجتماعية مختلفة . ثم ان دانتي لم يستطع التجرد كليا من قيم العصور الوسطى رغم نبذه المخلص اياها ، وهـو امر يجب ان يؤخـذ بالحسبان عند تقييم اعمال ونتاجات الرائد الاول للنهضة الذي « كان اول شاعر للعصر الحديث » الا انه كان في الوقت نفسه « آخر شاعر للعصـر الوسيط » .

لا يمكن ، بالطبع ، لمثل هذه الامور ان تنتقص من مكانة دانتي الرفيعة . فهو يكفيه الفخر في انـه كان اول من دعا في عصر مظلم الى حرية الشـعور وانطلاق العقل لفهم العالم واحترام قيم الفرد فايقظ العقول من سباتها الطويل ووجه ضربة قوية الـى القيم الاقطاعية والكاثوليكية السائدة واستحق بحق لقب المبشر الاول لافكار النهضة . ويكمن في ذلك ايضا سر ذلك التأثير الكبير الذي تركته اعمال دانتي على الادب والفن العالميين وعلى الفكـر السيـاسـي

الاوروبي . فان العديد من ابرز الكتاب والشعراء والنحاتين والرسـامين والموسيقيين المنتمين الـى شعوب مختلفة استقوا الوحي في نتاجات لهم مـن « الكوميديا الالهية » بالذات . وفي الواقع قيـم جميع الادباء الاوروبيين المتحررين من قيود الكنيسة دانتي كشاعر مبدع ومفكر عظيم . اما في بلاده فقد تحولت نتاجاته منذ القرن الرابع عشر ، اي مباشرة، الى مغذ لافكار حركة التحرر ــ الوطني للشـعب الايطالي ؛ وقد برز ذلك بشكل خاص في النصف الاول من القرن التاسع عشر عندما بلغت حركـة الوحدة الايطالية ذروتها . كما وجدت افكار دانتي رواجا كبيرا بين الحركات الشعبية التي وقعت فيما بعد والتي وصمتها الكنيسة بالهرطقة .

وقبل ان ننتقل الى البحث عن رواد النهضة الاخرين يجدر بنا ان نشير بايجاز الى ان هنالـك بعض الادلة المنطقية تبين بوضوح تأثر دانتي فـي كوميدياه بصور وآراء عربية الاصل اسلاميـــة الصياغة(٩) وردت في رسالة الغفران لابي العـلاء المعري وفي كتاب الفتوحات المكية لابن العربي . فان

(٩) كرس العدد السابع من « الموسوعة الصغيرة » « دانتـي ومصادره العربية والاسلامية » لعبد المطلب صالح لهـذا الموضوع بالذات . راجع كذلك د . عبدالقادر احمـد اليوسف ، المرجع السابق ، ص ٢٨٠ ــ ٢٨١ .

المؤرخ آسن بلاسيوس بين ان ترجمة الاحاديث المتعلقة بالاسراء والمعراج الى اللغات الاوروبية تعود الى قرون سبقت ميلاد دانتي ، كما الف احد رجال الدين المسيحيين في عهده (عهد دانتي) كتابا عن حياة الرسول وردت فيه اوصاف المعراج والصراط المستقيم وانتشر في اصقاع اوروبية شتى . ثم ان دانتي تلقى ثقافته الادبية على يد عالم فلورنسي كان على المام تام بالثقافة العربية بحيث انعكست آثارها في قصائد الفها عندما كان فكر دانتي دخل اوج تبلوره . ولا داعي اصلا للتاكيد على ان دانتي المتبحر في التاريخ والاداب والعلوم كان يهتم حتما بكل حرف يفوه به استاذه وبكل ابداع يسجله يراعه .

ان تأثر رائد النهضة الثالث بوكاشيو بقصة الف ليلة وليلة(١٠) يشكل دليلا آخر يجعل من راي بلاسيوس منطقيا مقنعا ، ولاسيما ان بوكاشيو مع زميله واستاذه بترارك كانا اول مفكرين تأثرا بدانتي وسارا على نهجه .

بترارك (١٣٠٤ — ١٣٧٤) :

يأتي الشاعر والكاتب الايطالي المبدع فرانجيسكو بترارك (Petrarca) على راس الجيل

(١٠) سنعود الى هذا الموضوع في مكان آخر من هذا الفصل .

القديم من الانسانيين . ينتمي الى عائلة تجارية فلورنسية طردت مع دانتي من المدينة قبل مولده بعامين بسبب موقفها السياسي . درس القانون والعلوم الدينية ودخل في خدمة الكنيسة . جاب بترارك المدن الايطالية والاقطار الاوروبية المختلفة فاطلع على حياة الناس ومشاكل المجتمع عن كثب .

اعجب بترارك ايما اعجاب بالثقافات القديمة فاولى تعلم اللاتينية اهتماماكبيرا بحيثلم يستطع احد من الانسانيين التعبير مثله بهذه اللغة ولم يضاهه احد في ولعه بجمع اقدم المخطوطات واندرها، وفي استنساخها وتحقيقها . فكانت مجموعته من المخطوطات تفوق اي مجموعة اخرى كما ونوعا ،بما في ذلك المكتبة البابوية(١١) . قضى بترارك معظم سنوات عمره بين مخطوطاته محققا اياها حتى انه استطاع الكشف عن عدد من المخطوطات غير المعروفة لرجال الفكر القدماء من امثال الكاتب والسياسي والخطيب الروماني شيشرون (١٠٦ — ٤٣ ق.م.) الذي جلب انتباهه بشكل خاص .

جاء اهتمام بترارك بالقديم نتيجة اصطدامه بواقع افكار العصر الوسيط فاصبح يعتقد ان الاسلوب الذي سلكه الاقدمون هو الطريق الاصوب

(١١) R. Weiss, Op. Cit., PP. 24-26.

لتحرير الانسان وخدمة الفكر والمجتمع فاستعار من المؤلفين القدامى الكلمة اللاتينية "humanitas" وكرر هو ، ومن بعده المتاثرون به ، استخدامها على نطاق واسع كما حاول بحماس تثبيت قيمها ، فكان بذلك اول من وضع « المعرفة الانسانية » في مواجهة مباشرة مع اللاهوت .

كان يختفي وراء نشاطات بترارك وافكاره شعور وطني فياض . فقد قيم حكم الرومان القدماء كعصر بطولي نموذجي في تاريخ بلاده لذا كان يرى في بعث تقاليده خلق اساس قوي للحياة السياسية والثقافية المعاصرة ولتحقيق وحدة ايطاليا التى كانت تشكل حلمه الاكبر : « فمن هو ذا الذي يمكن ان يخامره الشك في انه لو بدات روما تعي ذاتها بنفسها فان الجراة القديمة ستنفجرمن جديد ؟»(١٢) بهذا الاسلوب العميق عبر بترارك عما يجول في خاطره من شعور وطني جياش وطموح نبيل .

اذن توجهت تطلعات بترارك في الحياة والابداع نحو خدمة الحاضر ، فكان نبراسه العمل باخلاص من اجل الناس والوطن . كما سار على نفس نهج دانتي حول ضرورة ربط الفرد بذاته لا بانتمائه

(١٢) مقتبس من : ا . ا . جوبير ، فرانجيسكو بترارك ، — « تاريخ العالم » ، الجزء الثالث ، ص ٦٢٥ .

او انحداره العائلي ووقف من هذا المنطلق ضد الارستقراطية التي كان ينتمي اليها بنفسه ، وايد الثوار الذين انتفضوا ضد الاقطاع في روما عام ١٣٤٧ .

عبرت هذه الاراء والمواقف عن نفسها بوضوح في مؤلفات بترارك(١٣) الذي قرض الشعر وكتب في التاريخ والسياسة والاخلاق والفلسفة ، فكرس احدى روائعه الموسومة ب « الروح العالية » للانتفاضة التي وقعت في روما ، ودعا في رائعة اخرى له الى الوحدة والى نبذ الخلاف والشقاق مختارا لها اسما معبرا هو « وطني ايطاليا » (Italia mia) التي لم تفقد قيمتها شكلا ومضمونا حتى اليوم . وكتابه « افريقا » مليء بالروح الوطنية السامية . وقد انتقد بترارك مساوىء الكنيسة بشدة في عدد من نتاجاته المهمة ، خاصة في قصائده التي اسماها « رسائل بدون عناوين » . واخيرا يجب ان نشير الى ان حب بترارك لفتاة احلامه لاورا تحول ايضا الى مصدر وحي للعديد من نتاجاته الادبية ، الا انه ظل ، على العكس من دانتي ، يحوم في قصائده وكتاباته حول

(١٣) الف بترارك عددا كبيرا جدا من المؤلفات ، ضاع قسم غير قليل منها (R. Weiss, Op. Cit., P. 26) .

مشاكل هذه الدنيا بشكل مباشر . ومع ان بترارك لم يبتعد كليا عن المجاز والاستعارة اذ يحاول ببراعة استغلال المعنى الرفيع لاسم محبوبته(١٤) في تعابير مجازية الا ان اسلوبه ظل مع ذلك قريبا الى سمع وقلب وعقل القارىء في تناسق موسيقي عجيب . ولئن جعل دانتي من فيرجيل مرافقا له في الحياة الثانية فان بترارك استعان كذلك بهذا الشاعر الوثني نفسه ولكن باسلوب قريب من هذه الحياة. فانه استعار ، مثلا ، من احد مؤلفات فيرجيل قضايا معينة للتعبير بها عن آثار نابولي في بعض من قصائده . وقد جاءت مثل هذه التعابير المباشرة بمثابة خطوة سريعة نحو انطلاق اكبر ، ، لاسيمااذا اخذنا بنظر الاعتبار الفرق الزمني الجزئي بين دانتي وبترارك . من هنا لم يقل تاثير الاخير على اعلام النهضة الطليان وغيرهم من تاثير دانتي خاصة وان معظم انسانيي عهده اما كانوا من اصدقائه المقربين او من تلاميذه بل ان افكار بترارك انتشرت في خارج ايطاليا بشكل اسرع من افكار معاصريه ومعظم الانسانيين الذين اتوا من بعده ممن بلغ تاثرهم به حد انهم حاولوا تقليده في كتاباتهم اكثر من تقليدهم

(١٤) اسمها مقتبس من كلمة Lauro التي تعني اوراق او شجرة الغار الايطالية ، ولقد جعل الاغريق والرومان القدماء اكليل الغار رمزا للانتصار والمجد والظفر .

للكتاب الاقدمين بحيث يمكن التحدث عن مدرسة بتراركية خاصة لم تقتصر على ايطاليا بل امتدت الى ما وراء الالب(١٥) .

لم يستطع بترارك ، بالرغم من كل تطلعاته ، قطع جميع الخيوط التي كانت تربطه بالماضي وقد اعترف بذلك شخصيا . من الطبيعي ، اذن ، ان ظهر بعض التناقض في آرائه ومواقفه شانه في ذلك شان دانتي . فبعد يأسه من تحقيق الوحدة الايطالية بالاساليب التي كان يؤمن بها وعن طريق القوى التي اعتبرها جديرة للاضطلاع بتلك المهمة السامية يخطو بترارك خطوة كبيرة الى الوراء عندما يبدأ في اواخر حياته بالنظر الى احياء الامبراطورية الرومانية المقدسة وسيلة لايجاد الحلول لمشاكل بلاده السياسية . كما ان حبه للحياة والانسان غالبا ما كان يصطدم ببقايا افكار التقشف والرهبنة التي ترعرع في احضانها . وقد ظهر هذا التناقض بجلاء في مؤلف له عن الحياة دونه على شكل حوار مع احد الزعماء الروحانيين الاوائل للمسيحية .

قضى بترارك الفترة الاخيرة من عمره في عزلة تامة عن العالم الخارجي ، ولكن لم ينفصل حتى

(١٥) R. Weiss, Op. Cit., PP. 27-29, 34, 86, 98-112; "The Renaissance and the Reformation 1300-1600", P. 9.

آنذاك عن التفكير في مصير وطنه وعن مشاكل الناس وغيرها من القضايا الحيوية مما يعطيه مكانة متميزة في بدايات عصر النهضة وفي تاثيراته المباشرة على الانسانيين الاخرين ، منهم الرائد الثالث بوكاشيو الذي كان من اوائل تلاميذه واقرب اصدقائه .

بوكاشيو (١٣١٣ – ١٣٧٥) :

ولد الكاتب الايطالي البارز جيوفاني بوكاشيو في باريس في عائلة فلورنسية امتهنت التجارة . اراد والده ان يجعل منه تاجرا او محاميا ، ولكن لم تكن لدى بوكاشيو رغبة نحو اي من المهنتين . بعد عودته الى ايطاليا بدا نشاطه الادبي في مدينة نابولي التي كانت تجمع انذاك بين بقايا القديم المتمثلة في مظاهر الفروسية وبدايات التحول الجديد المتمثلة في ظهور بعض الانسانيين فيها . تمتع بوكاشيو في نابولي برعاية ملكها كما وقع في حب ابنته غير الشرعية ماريا التي لعبت في حياته ما لعبته كل من باتريس بورتيناري ولاورا في حياة دانتي وبترارك الابداعية .

عاد بوكاشيو في ريعان شبابه واوج نشاطه الادبي الى فلورنسا التي استقبلته بحفاوة اذ حققت بورجوازيتها النامية آنذاك الانتصار على الفئة الارستقراطية الحاكمة فيها فظهر امام الكاتب المبدع مجال ارحب للنشاط الفكري الذي امتد الى الناحية

العملية ايضا بولوجه عالم السياسة . فقد وقف الكاتب المبدع بحماس الى جانب المؤسسات الجمهورية الجديدة واضطلع بعدد من المهام الدبلوماسية الكبيرة . ومع انه لم يقف الى جانب الفئات الاجتماعية الدنيا في مدينته والتي بدات تتحرك بدورها من اجل ضمان مصالحها ، الا ان نشاطاته تميزت ، مع ذلك ، بطابع ديمقراطي وطني عميق ولا سيما انه استمر في اداء الرسالة التي بداها دانتي وبترارك فلعب دورا بارزا في رفع الشعور الوطني بين ابناء جلدته كما ساهم بقوة نتاجاته الادبية في تعزيز مكانة اللغة القومية الايطالية كلغة بحث وتاليف ، خاصة وانه دون بها معظم مؤلفاته .

بلغ بوكاشيو قمة ابداعه الفني في رائعته « ديكاميرون » المؤلفة من مائة قصة قصيرة قضى ثلاث سنوات في تاليفها وهو يرويها على لسان سبع شابات وثلاثة شبان امضوا عشرة ايام في فيلا خارج المدينة اثناء انتشار الطاعون في فلورنسا عام ١٣٤٨ كان يروي الواحد منهم قصة واحدة في كل يوم . ومن هنا جاء اسم الكتاب (ديكاميرون)الذي يعني في اللاتينية « مذكرات عشرة ايام » .

تحتوي مجموعة « ديكاميرون » على قصص تروي مغامرات بعض التجار في بلدان مختلفة وعلى

اخرى مقتبسة باسلوب رفيع من الاساطير والقصص الشعبية المتداولة ومن الحكايات الشرقية المعبرة(١٦) ولكن الاحداث اليومية لحياة المجتمع تحتل المكانة الاولى في المضمون العام لقصص « ديكاميرون » التي اصبح أبطالها ، بحكم ذلك ، من ابناء المجتمع الايطالي بدءا بالملوك والزعماء وانتهاءا بالخدم وبسطاء الفلاحين . وقد صب المؤلف جميع امكاناته في السخرية في هذا الجانب من قصصه ، فيثير الضحك بذكاء مقصود في أعماق القارىء على أعمال وتصرفات الرهبان والوعاظ والمبشرين والقساوسة الكاثوليك وغيرهم من رجال الاكليروس الذين يصورهم بوكاشيو كطفيليين متخنثين ومخادعين منغمسين في الفسق والفجور وكاناس ضليعين في النفاق والرياء . وفي الواقع لم يمس بوكاشيو المسائل الدينية ، الا ان خطوته الجريئة في كشف رجال الكنيسة لم تخل من اثر مهم في خلق الاتجاهات المقبلة لمعالجة الجوانب السلبية في التعاليم الكاثوليكية المبتدعة بنفس الجراة . ثم ان قصصه مليئة بالامثلة الحية عن انتصار القيم الحياتية الرفيعة المتوافقة مع عقل الانسان ومصالحه في العصر الجديد الذي لم يبق فيه مكان

(١٦) لا يستبعد ابدا احتمال تاثر بوكاشيو بالف ليلة وليلة التي ترجمت الى اللاتينية ايام الصليبين .

لقيم لم تعط الانسان حقه كاداة خلق مبدع في الحياة؛ فلقد طور بوكاشيو الراي القائل بان منزلة الفرد لا تعتمد على انتمائه العائلي بل تعتمد على ما ياتي من اعمال وافعال .

ومن المهم ان نشير ايضا الى ان بوكاشيو لم يعد مثل سلفه دانتي بحاجة الى تقمص اناس من الماضي السحيق واختيار اجواء من العالم الاخر ليعبر عن طريق اولئك وتلك عما كان يجيش في صدره من نقد لاذع للمظاهر المتفسخة ، بل انه يبقى في اجواء الواقع الملموس ويتكلم في « ديكاميرون » على لسان ابناء الجيل الجديد المنتمين الى الفئات الجديدة عما يدور في اعماقهم من تعرض مشروع لسلبيات الواقع الاجتماعي . وقد عبر الكاتب بشكل غير متقصد كذلك عن اسلوب حياة الطبقة الاجتماعية الجديدة وبعدها ، مثل الارستقراطية السابقة ، عن الاوساط الشعبية . فعندما كان هؤلاء العشرة حسب تصور الكاتب ـ يقضون حياتهم ويدراون الخطر عن انفسهم بهذا الاسلوب كان الطاعون يلتهم حياة المئات من ابناء الفئات الفقيرة في المدينة .

وبالرغم من كل ذلك فقد بدا بوكاشيو يعاني ، مثل سلفه دانتي ومعاصره بترارك ، ازمة نفسية حادة في خضم التناقضات الاجتماعية التي كانت تعيشها المدن الايطالية والتي انعكست آثارها بقوة

في مجال النشاط الفكري . وقد وقع اخيرا تحت تأثير احد رجال الكنيسة فبدا يبدي الندم على ما ظهر في نتاجاته من تعلق بحياة الدنيا ؛ ولو لا تدخل بترارك الذي كان بوكاشيو يعتبره مرشدا له،لتخلى نهائيا عن كل نشاط ادبي . ومع ذلك كرس بوكاشيو اواخر حياته للعمل العلمي الصرف كالبحث عن المخطوطات القديمة والتأليف في مجال التاريخ كما اسس في فلورنسا كرسيا لشرح مؤلفات دانتي وعلق بنفسه على سبع عشرة انشودة من اناشيد « الكوميديا الالهية » وهو اول من سجل تاريخ حياة مؤلفها في كتاب خاص .

سيبقى اسم بوكاشيو خالدا ولا سيما ان قصة « ديكاميرون » قد جلبت له سمعة عالمية وهي تمثل ــ عند مقارنتها بنتاجات دانتي وبترارك ــ مرحلة اعلى في مسار التطور الادبي الايطالي والاوروبي . فقد ظل هذا الادب مدينا ، في تطوره اللاحق ، لبوكاشيوطيلة عصر النهضة وحتى بعدها، اكثر من اي ابداع فردي آخر(١٧) .

في ختام حديثنا عن الرواد الثلاثة علينا ان نؤكد مرة اخرى على انه بالرغم من جميع نواحي الضعف الطبيعية في نتاجاتهم وآرائهم فان دورهم في

(١٧) R. Weiss, Op. Cit., P. 33.

النهضة يبقى بارزا ومتميزا اذ هم الذين وضعوا اللبنات الاولى التي اعتمد عليها التطور اللاحق لافكارها التي تعمقت بعدهم وبفضلهم اكثر من السابق ؛ فيكفي دانتي وبترارك وبوكاشيو فخرا انهم وضعوا « بداية ثورة في التاليف »(١٨) مما انعكس في جميع الاتجاهات والمسارات الفكرية الجديدة . وربما كان آرازمس من ابرز الانسانيين الذين حافظوا الى حد كبير على تقاليد هؤلاء الرواد في مرحلة بلغت النهضة فيها اوج نضجها .

الانساني البارز ارازمس

الروتردامي (١٤٦٦ ؟ ــ ١٥٣٦)

يحتل ارازمس الروتردامي مكانة خاصة في تاريخ النهضة الاوروبية لا لسعة اطلاعه فحسب بل كذلك لانه ترك آثارا مباشرة على الحركة الفكرية في عدد من الاقطار الاوروبية . فقد ولد في روتردام بهولندا حيث بدات حياته العملية والدراسية بين جدران كنائسها ، ثم انتقل الى باريس لنيل الدكتوراه في العلوم الدينية من جامعتها وشغل هناك ايضا منصب عميد كلية دي فرانس الرفيع ؛ وعمل ما يربو على ستة اعوام محاضرا في جامعات

(١٨) D. Hay, Op. Cit., P. 80.

انكلترا ، ولا سيما في كمبرج ، وانتقل نشاطه العلمي الجم الى كل من المانيا وايطاليا وسويسرا الى ان وافاه الاجل بمدينة بازل في سويسرا .

طبقت شهرة ارازمس كلغوي واديب ومفكر فذ على جميع الاوساط العلمية والثقافية الاوروبية بسرعة . كان ضليعا في معرفة اللغتين اللاتينية واليونانية والف عددا من الكتب حول دراستهما ، الا انه اولى اللاتينية اهتماما اكبر فقد كان يتكلم ويؤلف بها .

ان اجل خدمة قدمها ارازمس هي ما قام به من تثبيت للنصوص الاصلية للعهد الجديد ولعدد من الكتب الكنسية القديمةمع ترجمتها الى اللاتينية ترجمة دقيقة وواضحة . وقد أعطى ذلك ، مع تعليقات وشروحات ارازمس نفسه ، امكانية فهم اعمق لمضمون الكتاب المقدس . ومن اعماله الجليلة ايضا انه قام بجمع وشرح مختارات من حكم وامثال الكتاب الاقدمين فاسهم بذلك الى حد كبير في نشر الافكار الانسانية بين أوساط ثقافية أوروبية مختلفة اذ يعتبر مؤلفه « كتاب الامثال » الذي انتهى منه في العام ١٥٠٠ من اشهر نتاجاته وهو عبارة عن مجموعة من حكم وامثال وطرائف الكتاب الاقدمين الحق بها تعليقات عميقة في مضمونها واهدافها حولت الكتاب الى حافز مهم لرواج الفكر الانساني

في عصر النهضة ، فقد ترجم الى عدد من اللغات الاوروبية وانتشر على نطاق واسع .

تمسك ارازمس في ارائه بالديانة المسيحية فاكد على قيمها الاخلاقية والمعنوية التي اعتبرها قمة ما توصل اليها الفكر الانساني في مسار تطوره ونظر من هذا المنطلق الى العلوم والثقافات القديمة كمقدمة للانتقال الى مرحلة أعلى ارتبطت بظهور المسيحية التي اعتبر تعاليمها ارفع من أن تمتد اليها يد الاصلاح لذا وقف ضد الحركة اللوثرية وناقش اراء دعاة الاصلاح من امثال الانساني الالماني فون هوتن ولوثر وقد نشر كتابا اسماه « حرية الارادة » تهجم فيه بشدة على أفكار مارتن لوثر ودافع من خلاله عن حرية ارادة الفرد .

ومع ذلك فقد تحولت أفكار آرازمس ، رغما عنه ، الى قوة دفع بارزة ضمن مقومات حركة الاصلاح الديني . فانه ، كما ذكرنا ، ترجم الانجيل والكتب الدينية القديمة بشكل دقيق ومفهوم مما ادى الى كشف مدى انحراف كبار رجال الدين وابتعادهم عن المبادىء الاصيلة للمسيحية التي استهدف هو من توضيحها محاربة الشرور الاجتماعية في عصره . فاشار في مؤلفاته الى بعض الاضرار المعنوية الناجمة عن التملك الفردي وعن الفوارق الاجتماعية الصارخة والفقر . وذهب الى

مدى ابعد من ذلك بكثير عندما انتقد باسلوب ساخر للغاية استهتار القساوسة وانغماسهم في ملذات الحياة مختفين تحت واجهات شتى . ويعتبر كتابه اللاذع « في مديح الغباوة » او « تمجيد السفاهة » نموذجا صارخا لانتقادات ارازمس للقيم الدينية والسياسية السلبية في عصره اذ يثير الضحك بقوة وبذكاء خارق في اعماق القارىء على تصرفات المنافقين والدجالين والجهلة ويكشف فيه نواقص الكنيسة ورجال الدين باسلوب اقوى من معظم معاصريه فساعد بذلك على انضاج شروط انفجار حركة الاصلاح الديني ، ولا سيما ان مؤلفاته كانت تترجم بسرعة الى اللغات الاخرى وكانت تلقى رواجا كبيرا بين الناس بحيث بلغ مجموع ما طبع من بعض كتبه ، وبشكل خاص كتابه « في مديح الغباوة » عشرات الالوف من النسخ وهي رقم قياسي نادر بالنسبة لعصره .

كان ارازمس الروتردامي هادئا في طبعه ، ميالا الى السلم والتسامح لذا لم يكن يحبذ الانقلابات والتغييرات المفاجئة ، انما كان يميل الى استخدام العقل والتعليم لدفع الناس الى الطريق السوي . فقد اعتبر عقل الانسان اسمى شيء في الوجود لابد من تحويله الى الاساس الذي يجب أن يستند اليه كل حكم موفق . فعلى الحاكم الناجح أن يلجا الى

العقل في سبيل القضاء على التناقضات والخلافات والحروب الداخلية واقامة سلم دائم عن طريق ايجاد حلول عادلة للمشاكل الدولية . وقد ضمن اراءه السياسية هذه كتابه « تربية الامير المسيحي » . وفي كتابه هذا اكد ارازمس على ضرورة ان يبذل الامير قصارى جهده لكسب حب الشعب بان يكون « شفوقا ، حليما وانيسا » و « يختار وزراءه من بين الناس يتسمون بالصفات نفسها » ويحاول « ان يعرف مملكته جيدا »(١٩) .

اولى ارازمس من نفس المنطلق تقريبا ، مسالة التعليم جانبا كبيرا من اهتمامه ، فقد نشر بشانها عددا من الاراء القيمة كتنديده مثلا باسلوب التعليم الاقطاعي وكشفه للجوانب الشكلية والجمود الصارخ فيه واحتجاجه ضد اساليب الضرب والزجر المتبعة مع الطلاب ومطالبته بجعل التعليم سهلا ومفهوما ومتوافقا مع ذوق الطلبة بحيث ينمي فيهم روح الابداع الذاتي .

هكذا نرى شمولا واضحا في اراء ارازمس واتجاهاته مما جعله في نظر العديد من المؤرخين

(١٩) "Action and Conviction in Early Modern Europe", editors J. K. Rabb and J. E. Seigel, Princeton, 1969, PP. 20-21.

«ابرزوجه عرفته الحركة الانسانية على الاطلاق»(٢٠)، بل منحه بعضهم لقب « امير العلماء »(٢١) . فلا غرو ان نال ارازمس اعجاب الجميع ، ومنهم بعض ملوك اوروبا الذين استعانوا بخدماته ، كما وجد لغة مشتركة مع معظم انسانيي عصره الذين تحولوا الى اصدقاء مقربين اليه ، وكان توماس مور ، رائد الفكر الاشتراكي المثالي ، واحدا منهم .

الاشتراكيون المثاليون

منذ ان ظهرت الفوارق والاختلافات بين الفئات الاجتماعية ومنذ ان ظهر الاستغلال وتسلط القوي على الضعيف بدات الجماعات المغلوبة على امرها تبحث عن مخارج واساليب من شانها التخفيف من الامها . ولم تقتصر توسلات هذه الفئات على الانفجار والتمرد ضد الواقع المجحف بل انها بدات ايضا تسبح في عالم الخيال من اجل غد افضل مما عبر عن ذاته واضحا في الادب الشعبي لمختلف الشعوب . ففي عهد الاغريق والرومان القدماء

(٢٠) "Renaissance and Reformation 1300-1648", ed. by G.R. Elton, second edition, New York-London, 1968, P. 59.

(٢١) R. Palmer and J. Colton, Op. Cit., P. 59.

ظهرت اسطورة « العصر الذهبي » الخالي من الفوارق والاستغلال .

ومن جانب آخر حاول العديد من المفكرين صياغة نفس الطموحات في اطر فكرية متباينة . فافلاطون بالرغم من مثاليته ودفاعه عن « مجتمع العبيد» كان يحلم باقامة نظام مثالي يتولى فيه الفلاسفة مقاليد الحكم الذي عليه اشاعة نوع من التملك الجماعي وان ياخذ على عاتقه مهمة تربية الاطفال وتعليم الجيل الناشيء . وفي القرن الثاني قبل الميلاد ابحر الكاتب الاغريقي يامبول في قصة خيالية الى جزيرة ما تقع الى الجنوب من شبه الجزيرة العربية تقطنها عشيرة سعيدة لا يعرف ابناؤها الاستغلال والفروق فراى الكاتب فيها النموذج المثالي للحياة . وفي العصر الوسيط ، وحتى بعد ذلك ؛ بدا الناس يحلمون باحياء المثل المسيحية الاولى حول المساواة والاخوة .

كان من الطبيعي ان يتخذ مثل هذا التوجه الفكري طابعا اكثر شمولا واعمق تعبيرا مع ظهور العلاقات الراسمالية وازدياد الفروق الاجتماعية وتفاقم التذمر بين الناس . جاء في مبحث انكليزي يعود الى الربع الاخير من القرن السادس عشر :

« من الذي راى في اي عهد كان مثل هذا العدد من الناس المتذمرين والمستائين من اوضاعهم

ومثل هذا العدد القليل من القانعين بها ، ومثل هذا العدد الكبير من الراغبين في التغيير والتجديد ، او هل سمع شخص ما بمثل هذا العدد من انواع المصلحين ، او بتعبير اصح من مخربي النظام الطبقي والدولة ، وبمثل هذا العدد الهائل من ناقدي الملوك واعمالهم وبمثل هذا العدد القليل من الموالين لهم ؟ » .

ليس غريبا ان اتخذت افكار المساواة وطموحات العدالة الاجتماعية في ظل مثل هذه الظروف بعدا جديدا وبارزا بحيث ظهر في عصر النهضة اتجاه اشتراكي مثالي(٢٢) واضحة المعالم ، تبناه عدد من الانسانيين البارزين المنتمين الى اقطار اوروبية مختلفة ، يعتبر توماس مور الانكليزي رائدا لهم وتومازو (توماس) كامبانيلا الايطالي ممثلا بارزا للطموحات الاشتراكية المثالية الاكثر راديكالية والتي بدات تعبر عن نفسها بوضوح منذ ذلك العصر ايضا .

عالج الاشتراكيون المثاليون مشاكل مجتمعاتهم باسلوب جديد اختلف عن جميع الاساليب المعروفة الاخرى والسم ، بالرغم من نبل دوافع واهداف

(٢٢) نتعرض هنا للخطوط الاساسية لهذا الموضوع الذي يستحق تخصيص بحث مستقل لدراسته .

اصحابه ، بطابع خيالي بعيد المنال . فان توماس مور يتحدث في ابرز مؤلف له عن بلاد سعيدة في جزيرة « يوتوبيا » البعيدة الخالية ، بفضل نظامها، عن المشاكل التي تعاني منها المجتمعات الاخرى . ففي « يوتوبيا » لا يوجد مكان للتملك الفردي والاستغلال ،والمخازن عمومية تزود كل فرد بما يحتاج مجانا ولكل دار بابان مفتوحتان امام الكل باستمرار ، والعمل الجسماني ملزم بالنسبة لجميع المواطنين دون ان تتجاوز مدته ست ساعات في اليوم . وتتمتع المراة اليوتوبية بالمساواة التامة في الحقوق والواجبات،وهي لاتهتم الا بالجمال الطبيعي، فلا تستخدم مستحضرات التجميل لان رجال الجزيرة لا يحبذونها ولان تكامل الخلق ياتي في نظرهم قبل جمال الخلقة . وفي مثل هذا الجو من العلاقات يرتفع وعي سكان « يوتوبيا » الى درجة يحتقرون الذهب فيصنعون منه السلاسل للعبيد والقمادات للاطفال والشارات للمجرمين .

اما الفيلسوف والسياسي والشاعر والعالم الايطالي كامبانيلا فقد ذهب في مؤلفه « مدينة

الشمس » الى مدى ابعد من سلفه توماس مور(٢٢) . فالناس في مدينته الفاضلة « لا يخدمون الاشياء بل تخدمهم الاشياء » ، والكل يعملون اربع ساعات في اليوم اذ لا مجال « للعاملين اللئام والطفيليين » . ويعيش سكان المدينة في بيوت عامة وياكلون في المطاعم معا . وفي مدينة الشمس تتعهد الدولة تربية الاطفال وتعليمهم .

ظهر في عصر النهضة اشتراكيون مثاليون آخرون يحملون افكارا مشابهة لافكار مور وكامبانيلا او قريبة منها ، مثل سيرانو الفرنسي وتوماس مونزير الالماني وغيرهما . وقد كان الاخير الوحيد بين الاشتراكيين المثاليين الذي ربط بين النظرية والتطبيق بان بشر بارائه بين الاوساط المسحوقة فتحول الى واحد من ابرز قادة الحرب الفلاحية الالمانية المعروفة (١٥٢٤ — ١٥٢٥) .

لم تستند افكار الاشتراكيين المثاليين الى ارض الواقع ، بل كانت تدور في عالم الخيال . ولم

(٢٢) في العديد من افكاره تعدى كامبانيلا حدود فلسفة عصر النهضة (للتفصيل راجع :
E. Garin, Italian Humanism. Philosophy and Civic Life in the Renaissance, Oxford, 1965, PP. 215-220).

يكن مجرد صدفة ان اختار توماس مور لمؤلفه ذائع الصيت اسم « يوتوبيا » التي تعني في اللاتينية (المكان الذي لا وجود له) . ومع ان افكار هؤلاء قد تركت آثارها على الاتجاهات الاشتراكية اللاحقة الا انها ظلت محدودة التاثير في عصر النهضة ، محصورة في نطاق ضيق ، ولا سيما اذا ما قيس ، مثلا ، بالاطار الواسع والمتنوع الذي ظهرت فيه نتاجات الفنانين من رسامين ونحاتين وغيرهم .

الرسامون والنحاتون

للرسم والنحت جذور عميقة في حضارة الانسان ، وهما يتطوران عادة بسرعة اكبر نسبيا من غيرهما حالما يتوفر المناخ الملائم لمثل ذلك التطور . وهذا ما حدث في عصر النهضة بالذات عندما انطلق الفن من عقاله بسرعة مدهشة لم يضاهه في ذلك اي حقل من حقول المعرفة الانسانية الاخرى . فقد كان لابد للفن ان يجرف امامه حاجزا هائلا حصر الابداع في اطر ضيقة للغاية جعلت الانسان يفقد احساسه بجمال الطبيعة . فلوحات العصر الوسيط كانت قاتمة ، مليئة بالتشاؤم ، بل « تنفر منها النفس » حسب تعبير ر . م . سكوب . من هنا فقد اصبح لزاما على الفنانين الجدد قطع درب شائك حتى يكون في وسعهم تحويل الانسان «الصغير

والدليل في الفن القوطي » الى « عملاق مرفوع الراس »(٢٤) « يغزو السماء نفسها »(٢٥) وليحولوا ماساة المسيح من شبح مخيف الى درس في الحياة من اجل الفكر والمبدأ . فبفضل ريشة عباقرة النهضة اسبغ الموت على المسيح المصلوب حلة المجد ليختفي وراءها ما عاناه من عذابات والام ، انه « فوق الصليب رجل في شرخ الشباب » وفي طفولته البريئة ، كاي طفولة ، يحوم حول « العذراء الام » لتوحي ملامحهما بالعلاقات الانسانية الاصيلة وما يدور في قلب كل ام تجاه رضيعها .

توجد عوامل اخرى اسرعت من الانطلاقة الكبرى للفن في عصر النهضة . فقد اشتركت جميع الشعوب الاوروبية تقريبا في اغناء هذا الجانب المهم من الحياة الثقافية . وينطبق نفس القول على الفئات الاجتماعية المختلفة للشعوب تلك . فان حياة بسطاء الناس بتناقضاتها الحادة بين عذابات الاستغلال وتفاؤل الحياة وبساطة الابداع مع قوته في مجالي الفولكلور والانتاج الحرفي قد تحولت الى مصدر وحي والهام للفنانين الذين خرج العديد

(٢٤) M. L. Bush, Op. Cit., P. 153.

(٢٥) R. Palmer and J. Colton, Op. Cit., P. 52.

منهم من بين صفوف تلك الاوساط ليصعدوا ولكن دون ان يفقدوا كل ما كان يربطهم بماضيهم من جذور . أما الاغنياء فانهم بداوا يميلون ، بتاثير مباشر من زخم القيم الجديدة ، الى تخليد انفسهم في هذه الحياة من خلال الفن فقربوا الرسامين والنحاتين من انفسهم واغدقوا عليهم بسخاء .

تمثل نتاجات عصر النهضة الفنية اليوم مكانة جد بارزة ضمن اثمن ما في التراث الانساني . وقد عبر رسامو ونحاتو ذلك العصر عن خصائص النهضة وجسدوها بشكل واضح يمكن الوقوف عليه من خلال عرضنا لحياة واعمال ثلاثة من ابرزهم ، هم ليوناردو دافنيشي وميخائيل انجيلو وروفائيل سانتي الذين ظهروا بدورهم في ايطاليا لتحتل بفضلهم ونتيجة جهودهم ، مكانة خاصة في هذا المجال كذلك .

ليوناردو دافينشي (١٤٥٢ — ١٥١٩)

قلما عرف التاريخ عبقريا مسيطرا على زمام حقول شتى فنية وعلمية وفكرية وادبية مثل ليوناردو الذي يعتبر عن جدارة واحدا من ابرز البارزين من بين العباقرة الذين ابدعوا في عصر النهضة . ولد ليوناردو في بلدة فينشي من اعمال فلورنسا التي تكونت فيها امكاناته الفنية وبدات فيها ايضا نشاطاته الابداعية المبكرة .

آمن ليوناردو دافينشي ايمانا مطلقا ذا مسحة فلسفية بوجود علاقة ثابتة بين الفن والعلم ولم يحد عن هذا الراي حتى الاخير . فهو كان يرى انه لابد للابداع الحقيقي في فن الرسم ان يعتمد على التحديد الدقيق لابعاد الصورة بشكل متناسب مما يتطلب — كما كان يؤكد — الالمام التام بالرياضيات . واذا اراد الرسام الاصيل التعبير عن تفاصيل الانسان بدقة ، فان عليه ان يقف على دقائق جسمه وهذا يفرض الماما كافيا بالاناتوميا التي اولاها شخصيا اهتماما خاصا . واخيرا حدد ليوناردو العلاقة بين العلم والرسم من خلال الطبيعة نفسها فهي — كما كان يكرر باستمرار — تشكل المختبر الاساس لجميع العلوم كما تشكل ، في الوقت نفسه ، الحقل الرئيس لابداع الرسامين الذين طالبهم بالمعرفة الحقيقية وبالاطلاع الواسع حرصا منهم على اصالة ابداعاتهم الفنية . فيكون ليوناردو بذلك رساما ونظريا في فن الرسم ، وقد طبع له كتاب بعد وفاته ضم ملاحظاته العميقة حول هذا الموضوع .

وضع ليوناردو دافينشي الرسم في مرتبة اعلى من جميع الفنون الاخرى ذلك لانه يستطيع « التعبير عن كل ما يقع تحت النظر » وحتى انه يطلق اسم العلم عليه فيذكره في كتاباته بهذه الصيغة احيانا . وقد سيطر بنفسه على زمام هذا الفن الى حد

الكمال . بحيث نعتبر القلة الباقية من لوحاته من اندر وأثمن ما أنتج في هذا الميدان وهي تعبر عن الثروة الفنية الكامنة في الطبيعة والحياة نفسها بشكل متفائل لم يبتعد عنه الرسام العبقري حتى في لوحاته التي كرسها للشخوص والاحداث الدينية على الاقل لان المرء لا يلمس فيها الرهبة القاتمة المفتعلة التي تتميز بها نتاجات العديد من الرسامين الاخرين . ففي لوحته المعروفة « العذراء والزهرة » جسد ليوناردو بشكل مبدع سعادة أم شابة تلعب مع طفلها البكر . وفي لوحته الاخرى المشهورة جدا « موناليزا » او « جوكندا » التي رسمها في حوالي العام ١٥٠٣(٢٦) اعطى صاحبة الصورة الرائعة الجمال بعدا فنيا خاصا من خلال نظرتها البعيدة المعبرة وابتسامتها الغامضة التي أصبحت ، ولم تزل ، مدار نقاش العديد من الرسامين والمختصين في فن الرسم وغيرهم .

هكذا جعلت ابداعات ليوناردو دافينشي النابعة من اطلاعه الواسع مع تعمقه الخارق في التعبير عن نفسيات شخوص لوحاته ، وتمكنه العجيب في الجمع بين الالوان فيما بينها ومع مضمون اللوحة ، اضافة الى الحركة الملموسة

(٢٦) تعتبر من اثمن موجودات متحف اللوفر بباريس ان لم تكن اثمنها قاطبة .

بشكل غريب في رسومه ، جعلت منه رائدا للمرحلة الجديدة في تطور الفن الايطالي وبالتالي الاوروبي .

لا يمكن فصل ليوناردو المفكر وليوناردو العالم عن ليوناردو الرسام ، ولا يجوز فصل هذا او ذاك عن ليوناردو الانسان . فهو كان يؤلف في ذاته شخصية متكاملة وعبقرية متشعبة تفاعلت فروعها فيما بينها لتعطي نتاجاته المختلفة قوة فائقة فريدة . فانه كان عالما عبقريا اغنى تقريبا جميع حقول المعرفة بملاحظاته الدقيقة وتوقعاته العميقة . فقد درس وبحث في الرياضيات والنبات والميكانيك والفيزياء والفلك والجيولوجيا والاناتوميا وفسيولوجيا الانسان والحيوان وفي الفنون العسكرية . واعتمد في مجالات كثيرة من هذه العلوم على تجارب ودراسات من سبقوه مع استنتاجاته الشخصية . ففي الميكانيك ، مثلا ، اعتمد على مكتسبات اسلافه وعلى تجاربه الذاتية الفنية كمهندس زاول المهنة فاهتم بقضايا كثيرة من قبيل الفعل ورد الفعل والتوازن وسقوط الاجسام ومقاومة المواد المختلفة وغيرها ووضع بالاستناد الى كل ذلك مشاريع مختلفة « للمدينة المثالية » وطور فن بناء القبب وبدأ بوضع خرائط ومخططات بهدف تطوير الميكانيك المستخدم في البناء . وكانت محاولاته لصنع اجهزة طائرة جديدة في بابها وقد اعتمد فيها

ايضا على التجربة وعلى ملاحظة دقيقة لعملية تحليق الطيور المختلفة فوضع عن الطيران ما لا يقل عن مائة نظرية وتوصل فعلا الى صنع الات تطير بواسطة اليد او الزنبرك واستنتج ـ وهذا مهم جدا بالقياس الى زمانه ـ ان نجاح الآلة الطائرة انما يعتمد على وجود محرك خاص بداخلها . والى جانب ذلك توجد بين مخطوطاته صور لمظلات (البراشوت) والطائرات العمودية (الهليوكوبتر) ، وقد اراد من الاولى ضمان هبوط الانسان من المناطق المرتفعة الى الارض برفق .

وضع ليوناردو دافينشي ايضا تصاميم مختلفة لعدد من المكائن الجديدة منها آلة للنسج واخرى للندف وثالثة لصقل الزجاج والة طابعة وآلة خاصة بالتجارة وماكنة لحفر القنوات ومصاهر للمعادن وغيرها . وهو اول من حاول تحديد قوة الضوء وعلاقتها بالبعد المكاني على اساس التجربة ويمكن اعتبار مقارنته بين انتشار الامواج فوق سطح الماء من جهة وانتشار الصوت والضوء من جهة اخرى بمثابة احدى الاشارات الاولى لنظرية التموج الضوئي .

اهتم ليوناردو طوال حياته كرسام وعالم بالاناتوميا ، وهو لم يقتصر على تشريح الانسان بل قام في الوقت نفسه بتشريح اجسام حيوانات

مختلفة وان المخططات والصور الاناتومية التي تركها لا تفوق الى حد كبير نتاجات عصره في هذا المجال نحسب بل انها تفوق ايضا شبيهاتها في العهود التالية . وهنا توصل العالم الفنان الى عدد من النتائج الباهرة ايضا ، فقد تمكن من فصل راس الضفدعة وقلبها عن جسمها وهو اول من حدد بشكل صحيح عدد فقرات عظم العصعوص لدى الانسان . وعلى ما يبدو انه كان يفكر في تطور الانسان من الاشكال البدائية الى ان بلغ التكامل لان كتابة وصف توضيحي مقارن بين الانسان والحيوانات القريبة الشبه به كانت ضمن مشاريعه العلمية .

اما في مجال الفلك فقد وقف ليوناردو بثبات ضد الاراء التي كانت تجعل من الارض مركزا ثابتا للكون وهو اول من حدد بشكل صحيح اللون الرمادي للقمر ، كما توقع حدوث تغييرات على اوضاع اليابسة والمياه المحيطة بالارض في الماضي وذلك بالاستناد الى استنتاج استنبطه من وجود بقايا الحيوانات البحرية في اماكن تبعد كثيرا عن سواحل البحار والمحيطات .

ويجدر بنا ان نشير اخيرا الى ان ليوناردو دافينشي قد اسهم ايضا في تطوير اجهزة الحرب فمن بين مخططاته وخرائطه ما يشير الى آليات

تشبه الدبابات والمصفحات كما حاول تطوير المفرقعات والمدافع ووضع خططا ناجحة لصنع ملابس الغوص والجسور المتنقلة وغيرها كوسيلة ذود عن الحرية ، فقد جاء في مذكراته قوله : « اني اخترع من وسائل الهجوم والدفاع ما نواجه به باس الطغاة الطامعين ، لكي نحافظ على النعمة الكبرى التي وهبتنا اياها الطبيعة الا وهي الحرية »(٢٧) . ان ليوناردو كان نصيرا مخلصا للسلم(٢٨) توقف ضد الحرب بقناعة مفكر واصفا اياها كأسوأ اشكال الجنون المتوحش ، وقد اصاب كبد الحقيقة في ذلك دون ان يعلم ان بعضا من نتاجاته النادرة ستصبح في يوم من الايام احدى الضحايا الثمينة التي لا تعوض لحروب نابليون وهتلر ، بل وحتى للحروب التي وقعت في ايامه . فقد كلفه ملك ميلان باقامة نصب تذكاري لعميد اسرته سفورزا ، فاولى ليوناردو الطلب جانبا كبيرا من اهتمامه مما يبدو واضحا من المخططات العديدة التي وضعها لتنفيذ المشروع الذي كان من المقرر

(٢٧) مقتبس من : الدكتور جلال شوقي ، عبقرية ليوناردو دافينشي في الهندسة ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٢٧٣ .

(٢٨) باقتراح من مجلس السلم العالمي احتفلت مختلف الاوساط الفكرية والثقافية العالمية في نيسان ١٩٥٢ بمناسبة مرور خمسمائة عام على ميلاد الفنان المبدع والعالم الكبير ليوناردو دافينشي .

ان يبلغ ارتفاع حصانه فقط اكثر من سبعة امتار . وقد صب ليوناردو التمثال من الصلصال فجاء النموذج تحفة نادرة عرض في احدى ساحات المدينة الى ان يتم صب التمثال الاصلي من البرونز. الا ان هجوم فرنسا على ميلان والحاجة الملحة للبرونز لصنع الاسلحة قد حالا دون تنفيذ المشروع. والانكى من ذلك هو ان الجند الفرنسيين بعد دخولهم ميلان اتخذوا من نموذج النصب هدفا للرماية اثناء تدريباتهم(٢٩) فأتوا على عمل فني رائع امام اعين صاحبه الذي لم يتحمل وقع الصدمة فانتقل الى البندقية ومنها الى فلورنسا .

سجل ليوناردو دافينشي جميع ملاحظاته واستنتاجاته العلمية بلغته القومية وعارض بشدة ـ كابن بار لشعبه وعصره ـ استخدام اللاتينية . ومن اقواله الرائعة بهذا الصدد : « لدي في لغتي من الكلمات الكثيرة ما يجعلني ان اشكو من انعدام مفاهيم ملائمة للاشياء اكثر من ان اشكو من انعدام الكلمات التي استطيع التعبير بواسطتها عن مضامين افكاري » . ومن عادته انه كان يحمل دائما معه دفترا خاصا لتسجيل ملاحظاته التي كان يرتبها فيما بعد حسب المواضيع وتسلسلها وكان يدونها

(٢٩) M. L. Bush, Op. Cit., P. 163.

بخط معكوس ، اي من اليمين الى اليسار ، ومن الطريف انه كان يجيد استعمال كلتا يديه في الكتابة والرسم دون صعوبة . ولكن لم يصلنا ، بمزيد الاسف ، اي من مؤلفاته الكاملة ، الا انه توجد الان، ولحسن الحظ ، حوالي سبعة الاف صفحة(٣٠) متفرقة من مخطوطاته في عدد من المتاحف الاوروبية (في لندن وباريس وميلان وغيرها) من شانها اعطاء فكرة واضحة عن عظمة وعمق هذا الفنان العالم . ومما يجدر بالذكر هنا ان في مذكرات ليوناردو من الاشارات ما يدل على انه كان مطلعا على مؤلفات عدد من العلماء المسلمين منهم الرازي وابن سينا .

بوشر بطبع مؤلفات ليوناردو منذ النصف الثاني من القرن الماضي ولم ينجز حتى الثلاثينيات من هذا القرن وهذا يفسر لنا لماذا كان تاثيره على التطور العلمي محدودا مما ترك اثرا سلبيا على سرعة ذلك التطور لان العديد من الاختراعات التي توصل اليها العلماء في القرون التالية كان ليوناردو قد اكتشفها او اقترب من اكتشافها في عصره . فعلى سبيل المثال لا الحصر ان ليوناردو توصل الى تحديد بعض الظواهر القمرية قبل غاليليو بحوالي مائة عام ، وان بعض المخترعين الامريكان توصلوا

(٣٠) ف . ي . روتينبورغ ، المرجع السابق ، ص ٧ .

الى صنع اول آلة طابعة(٢١) بعد ان خطط ليوناردو لصنعها بما لا يقل عن ٣٥٠ عاما .

لا يمكن ، في الواقع ، حصر ابداعات هـذا الانسان العظيم في مجالات العلم والفن ، علما بانه عاصر عهدا شهد الانحلال يدب في مختلف مرافق حياة بلاده السياسية والاقتصادية والاجتماعية حتى انه اضطر ان يقضي العقدين الاخيرين من عمره في الترحال والتجوال بحثا عن المكان المناسب لعمله وابداعه مما اثر على نتاجه بشكل ملموس ، وذهب اخيرا الى باريس تلبية لدعوة ملك فرنسا فرانسوا الاول حيث حظي برعايته الشخصية فقد خصص له قصرا بجوار قصره ، وكان يزوره غالبا بنفسه ويقضي ساعات طوال في الحديث معه . ولكن لسوء الحظ لم يدم هذا النعيم طويلا اذ وافى الاجل الفنان العبقري بعد سنتين بعيدا عن وطنه الذي رفع راسه الى العلا ، وكان آخر مأثرة له قبيل وفاته انه اوصى بكل ما يملك لخادمه الذي ظل مخلصا له حتى الاخير .

---

(٢١) تم اختراع اول آلة طابعة في العام ١٨٦٧ .

ميخائيل انجيلو (١٤٧٥ ـ ١٥٦٤) :

ميخائيل انجيلو (ميكلانجيلو Michelangelo) نحات ورسام ومعماري وشاعر ايطالي معروف ، درس وترعرع وتعلم الرسم والنحت في فلورنسا . عاش انجيلو حوالي ٩٠ عاما امتد من بداية الربع الاخير للقرن الخامس عشر وشمل اكثر من كل النصف الاول من القرن السادس عشر ، اي انه عاصر اهم مراحل الثورة الثقافية الاوروبية الحديثة التي تحولت بلاده الى ابرز مركز لاشعاعاتها النيرة .

جعل ميخائيل انجيلو من الانسان الموضوع الرئيس لنتاجه الفني . فقد ركز كل اهتمامه منذ خطواته الابداعية الاولى على «جسم الانسان الرائع» حسب تعبيره ، فكان يجسده في اعماله عاريا كما ولدته امه ، يعبر جسمه عن القوة والعزيمة والثبات ووجهه عن الزهو والسمو الانسانيين . وهو اراد بذلك الخروج على قيم العصر الوسيط وتزمت الكنيسة والتاكيد على حياة الدنيا والاشادة بتحرر المفكرين القدامى وعلى راسهم النحاتون الذين اطلع الناس لاول مرة في عبده على تماثيلهم الرائعة المكتشفة من قبيل «ابولو» و «أفروديت» وغيرهما.

هكذا خرج ميخائيل انيجلو في صنع تماثيله على تصورات الكنيسة الكاثوليكية وافكارها الخيالية

القائمة في التعبير عن رجال الماضي ، فجاء تمثاله الرائع « داود » الذي قضى حوالي ثلاثة اعوام في نحته من المرمر وبارتفاع بلغ اكثر من خمسة امتار بمثابة صيحة مدوية بوجه القيم الجمالية والفكرية للقرون الوسطى . وسار على نفس النهج في صنع تماثيله الاخرى المعروفة « الرحمة » و « موسى » و « العبد المقيد » و « العبد المحتضر » وغيرها . وقد عبر في هذين الاخيرين ، وفي تماثيل اخرى له، عن رجولة الانسان البسيط المصر على الانعتاق من اغلاله بشكل خلاق .

لم ترق تعابير ميخائيل انجيلو الفنية وآراءه الفكرية لاهل السلطة في بلاده ، ولا سيما انه كان يميل بشدة الى الاتجاهات الجمهورية ـ الديمقراطية التي كانت تعيش مرحلة صراع مريرة . وقد وقف بحماس الى جانب النظام الجمهوري الذي انتصر وقتيا في فلورنسا واشترك مع سكانها في الدفاع عنه اثناء محاصرتها من قبل قوات البابا والجيوش الاجنبية كرئيس للمهندسين المسؤولين عن صيانة اسوار المدينة على مدى احد عشر شهرا من الحصار المستمر . وبعد سقوط فلورنسا في العام ١٥٣٠ اضطر ان يختفي ولم ينل عفو البابا الا بعد ان تعهد بانجاز بعض الاعمال الفنية له ، لكن دون ان يقضي ذلك الخضوع الاضطراري على مشاعره الداخلية

الاصيلة التي عبر عنها بصدق وقوة في ابيات شعرية جوابية تعليقا على الابيات التي قالها الشاعر جوڤانين ستروتسي اعجابا منه بتمثاله الرائع « الليل » الذي يمثل حسناء غارقة في النوم وقد بلغ اطراء الشاعر لبراعة نحتها حد انه تصور انها ستنطق فيما لو استيقظت . واذا بنا نجد ميخائيل انجيلو المليء بالحركة والحيوية يرى في رده « السعادة في النوم » بل يرى سعادة اكبر في « ان تصبح حجرا » لان في « هذا العصر المجرم المخزي » سيصبح « الموت واللاشعور مصيرا محسودا » ؛ لذا يتوسل الفنان باسم الحسناء النائمة في دياجير الليل عدم ايقاظها من نومها العميق(٣٢) .

كان من الطبيعي الا ينجو الفنان العبقري المتحرر من غضب المتخلفين فكريا في عصره ، فظل الجواسيس يراقبون تحركاته كما عهد البابا الى احد الرسامين باجراء « تعديلات » على التعابير العارية في بعض لوحاته فاثار ذلك الرسام الماجور بعمله احتقار المجتمع ونقمة الفنانين ضده . وقد بدا ميخائيل انجيلو يشعر في مثل هذه الظروف بالوحدة اكثر فاكثر فصار يبتعد بالتدريج عن النحت والرسم

(٣٢) راجع نص ابيات جوڤانين ستروتسي ورد ميخائيل انجيلو في : ا . جوبير ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

وكرس الجانب الاكبر من العقود الثلاثة الاخيرة من حياته للفن المعماري ولقرض الشعر الذي تميز فيه كذلك بالعمق والتعبير التراجيدي الموفق ، فتكلم في قصائده عن الحب كتعبير عن تعلق الانسان بجمال الطبيعة كما وصف وحدة الفنان في محيط معاد وتطرق الى مواضيع اخرى كانت تعبر في مجملها عن خيبة مرة لاحد الانسانيين الكبار العاجز امام زحف الظلم والحيلولة دون انتصار الارهاب بواسطة الافكار والقيم المثلى التي آمن بها كغيره من الانسانيين البارزين .

روفائيل (١٤٨٣ — ١٥٢٠) :

ولد الرسام والمعماري الايطالي البارز روفائيل سانتي في مدينة اوربينو القريبة من فلورنسا وقضى سنوات عديدة من شبابه في الاخيرة حيث درس بعمق نشاطات من سبقوه هناك وبشكل خاص اعمال ليوناردو دافينشي كما اغنى تراثها الفني بابداعات جديدة ، ولكن ارتبط الجانب الاكبر من نشاطه بالعمل في مدينة روما .

اعطى روفائيل بدوره التراث الانساني ورواده القدماء مكانة بارزة في اعماله ، حتى انه أبرز صور فلاسفة من امثال ارسطو وافلاطون وبطليموس وسقراط وغيرهم مع قضايا دنيوية كثيرة اخرى

ارتبطت بافكار الانسانيين في لوحاته التي رسمها بطلب من البابا على جدران وسقوف ابنية الفاتيكان. وقد ذهب روفائيل الى حد ابعد من ذلك عندما عبر عن رجال الكنيسة انفسهم في اوضاع توحي بوضوح وكانهم حكماء العصر القديم يبحثون ويناقشون مثلهم ولكن في ملابس الرهبان . لم يتمكن روفائيل، مع ذلك ، من التعبير عن كل ما كان يجيش في صدره من افكار الانسانيين بسبب الارهاب المسلط بشكل متزايد على رقاب المفكرين الطليان ، لكنه اشترك بحماس في الحركة الوطنية التي كان استقلال الفكر ووحدة ايطاليا ضمن شعاراتها الاساسية .

ترك روفائيل ، بالرغم من قصر عمره (عاش ٣٧ عاما) ، مجموعة كبيرة من اللوحات الرائعة التي — على العكس من اعمال ليوناردو دافينشي — بقي معظمها حتى يومنا الحاضر وهي تزين الان قاعات اشهر المتاحف العالمية مع جدران وقبب كثيرة في الفاتيكان . تتميز لوحات روفائيل بقوة ودقة التعبير بدءا باعماله الاولى مثل « احلام فارس » ولوحاته الشهيرة المتكاملة من جميع الاوجه مثل « المدرسة اللاتينية » و « العذراء » و « العشاء الرباني » وغيرها . ولديه لوحات عديدة اظهر فيها مفاتن المراة بشكل بارع . وعلى ما يبدو انه لم يرتو

من جمال الطبيعة اللا محدود ، ففي احدى رسائله يقول : ان التعبير عن حسناء يتطلب رؤية العديد من الجميلات ، وبما ان مثلهن قلة والاختيار الموفق لن يكون هينا يضطر الرسام الى التوسل ببعض الفكر الذي يراوده ويحاول التعبير عنه(٢٢) . من هذا يبدو واضحا ان روفائيل قد اطلق العنان احيانا لخيال الفنان المبدع حتى يعطي نتاجاته بعدا جماليا اعمق .

برع روفائيل سانتي في فن العمارة ايضا حتى انه عين مسؤولا معماريا اولا في بناية كنيسة القديس بطرس المعروفة في روما قبل الانتهاء منها . وتشهد آثاره المعمارية البارزة في ايطاليا اليوم على عبقريته الاصيلة وتفوقه الكبير في هذا المضمار كذلك .

ظهر عباقرة آخرون كثيرون في مجال الابداع الفني في عصر النهضة من امثال جوتو ودوناتيللو وتيتيان وغيرهم الذين سجل التاريخ لهم ما اتوا من الاعمال الفنية والفكرية بمداد من الفخر ، خاصة وانهم الحوا في تحويل الفن الى غاية تخدم الفرد والمجتمع وذلك بتعبيرهم المباشر عن آلامهما وآمالهما . ويكفي هؤلاء الخالدين ان الفن الاصيل

(٢٢) مقتبس من : أ . جوبر ، ثقافة النهضة الايطالية ، ص١٢٦

ظل من بعدهم ، وسيبقى ، يخدم الانسان ، وهو ما تشهد عليه تجارب الحياة الزاخرة بشكل لا يدحض .

لم يقتصر التطور الفني في عصر النهضة على وجهيه البارزين الرسم والنحت ، بل امتد كذلك الى مجالات اخرى اهمها فن العمارة . فقد شهد عصر النهضة ميلاد ابنية شامخة جديدة في طرز بنائها تدخل اليوم بدورها ضمن الآثار الحضارية الخالدة . ومما يجدر بالذكر في هذا الصدد ان سرعة الانجاز تحولت الى مظهر مهم من مظاهر تكنيك البناء الحديث . فقد غدا تشييد القصور الفخمة والكنائس ذات القباب العالية المزخرفة بشكل دقيق يستغرق سنوات عدة بدل العقود واحيانا القرون من الزمن كما كان عليه الامر في السابق . ولا شك في ان كل ذلك يشكل صفحات بارزة في حياة الانسان وتاريخ تطوره .

تطور البحث التاريخي

يأتي التاريخ على راس قائمة العلوم الانسانية التي تأثرت بافكار النهضة ، وقد سبقت الاشارة ضمن المواضيع السابقة الى نواحي معينة تتعلق بهذا الامر . فان الاهتمام باحياء التراث القديم كان يعني بحد ذاته القاء اضواء كاشفة على صفحات مجهولة من تاريخ اوروبا السياسي والثقافي

والاجتماعي في عهدي الرومان والاغريق ، كما بدأ الاهتمام ، مثلما ذكرنا ، باثار الشرق فيرتبط ظهور الـ (Epigraphy) (دراسة النقوش والمنحوتات القديمة) كعنصر من عناصر دراسة تاريخ ماقبل الميلاد بعصر النهضة مباشرة . ولكن لم يقتصر الامر على هذه النواحي المهمة، بل طرأ كذلك تغيير ملموس في اسلوب البحث التاريخي وفي نظرة المؤرخين الى الاحداث وموقع الفرد فيها . فقد ظهرت النظرة الانتقادية بالنسبة للمصادر والبحوث التاريخية المدونة مما أسهم بشكل جدي في الكشف عن جوانب الضعف الكبيرة التي تميزت بها الدراسات والتفسيرات التاريخية في العهود السابقة وفي اثبات حقائق تاريخية مهمة ادى بدوره الى تعرية الفكر الاقطاعي . فان لورينزو ڤالا اثبت بعد البحث المفصل والتمحيص الدقيق وبالاستناد الى براهين وادلة مقنعة زور « هبة قسطنطين » فجاء عمله هذا بمثابة خطوة نوعية جريئة في مجال البحث التاريخي نحو الامام . وجرى لاول مرة في عصر النهضة تقسيم التاريخ الى القديم والوسيط والحديث . كما ظهرت في هذا العصر أيضا دراسات تاريخية من نوع جديد تهتم بأحداث الوطن بشكل متكامل موحد وبمفاخر الماضي باسلوب متوافق مع الشعور القومي والوطني الذي طفا الى السطح . فان ف .

گويجارديني (١٤٨٣ ــ ١٥٤٠) مثلا هو اول مؤرخ درس تاريخ ايطاليا في اطار موحد على عكس المؤرخين السابقين الذين تعودوا على دراسة حكوماتها ومناطقها المختلفة كوحدات منعزلة . وبدافع من الشعور القومي ايضا بدأ المؤرخون الجدد يبحثون عن حلول عملية لمشاكل مجتمعاتهم السياسية ويحاولون معرفة الاسباب الطبيعية للاحداث التاريخية ومن هنا فانهم رفضوا تأثير « القوى الغيبية » في خلق وتقرير مصير الاحداث وبدأوا يبحثون في دور الفرد المدرك (القادة والشخصيات التاريخية البارزة) في سير الاحداث . لكن لم يتجاوز سوى عدد قليل جدا من المؤرخين الانسانيين هذا الحد من التفسير البراغماتي للتاريخ . فان غاية ما عملوه انهم بحثوا في العوامل المنطقية وغيرها التي كانت تحرك القادة السياسيين . ففي رأي گويجارديني ان انانية الافراد هي التي تختفي وراء الاحداث ولم يعط الجماهير اي دور ، بل نظر اليها باحتقار واضح عندما دعا صراحة الى ابعادها عن دست الحكم الذي يجب ان يقتصر ــ حسب رايه ــ على الفئات الاجتماعية العليا .

ومن الجدير بالذكر ان العديد من الانسانيين الذين اهتموا بقضايا الادب والفكر والفلسفة كانوا مؤرخين في نفس الوقت وقد قدموا خدمات جليلة

مباشرة في مجال البحث التاريخي كما تشكل مؤلفاتهم الاخرى اليوم مصادر مهمة جدا للباحثين في التاريخ الاوروبي منذ اواخر العصر الوسيط . ولكن ظهر الى جانب هؤلاء عدد من الانسانيين الذين استحوذ التاريخ على افكارهم فخصصوا الجانب الاكبر من اهتماماتهم للبحث فيه ولدراسة احداثه . ويعتبر ماكياڤيللي ابرز مؤرخ ظهر في ذلك العصر والذي لا يزال يتردد اسمه باشكال مختلفة وفي اوساط متباينة باسلوب يسترعي الانتباه .

ماكياڤيللي (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) :

ينتمي المؤرخ والمفكر السياسي المعروف نيكولو (نيقولا) دي بيرناردو ماكياڤيللي الى اسرة فلورنسية نبيلة عريقة تدهور وضعها الاقتصادي الى حد الافلاس قبل مجيئه الى الحياة . بعد طرد الاسرة الحاكمة ميديجي من فلورنسا واعلان النظام الجمهوري فيها عام ١٤٩٨ تعاون ماكياڤيللي بحماس مع النظام الجديد وشغل منصب سكرتير مجلس العشرة الذي كان يشرف على قضايا الدفاع والسياسة الخارجية لجمهورية فلورنسا . ومع انه لم يدخل ضمن كبار المسؤولين الا انه تمكن بذكائه ونشاطه الكبيرين من ترك اثر واضح على حياة فلورنسا السياسية في عهدها الجديد . فقد قام

بحوالي عشرين سفرة دبلوماسية ناجحة التقى خلالها بشخصيات اوروبية مهمة على راسها ملك فرنسا لويس الثاني عشر والبابا وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة مكسيمليان الاول وغيرهم .

بعد الاطاحة بالمؤسسات الجمهورية وعودة ميديجي في ١٥١٢ الى السلطة ابعد ماكياڤيللي من منصبه وبعد فترة القي القبض عليه بتهمة الاشتراك في مؤامرة استهدفت بمث النظام الجمهوري فنفي ـ بعد التعذيب ـ الى قرية قريبة من فلورنسا حيث قضى بقية حياته في البحث والتاليف تاركا وراءه عددا من المؤلفات التي تعتبر من اهم نتاجات عصر النهضة في حقلي التاريخ والفكر السياسي ؛ لا سيما كتابه ذائع الصيت « الامير » الذي يعتبره معظم المؤرخين « نتاجا خالدا عن حق » من بين نتاجات النهضة الايطالية(٢٤) فيؤكدون على ضرورة «دراسته كعلم لا كدعاية »(٢٥) . ومن مؤلفاته المهمة الاخرى ايضا « فن الحرب » و « تاريخ فلورنسا » الذي يقع

(٢٤) R. Palmer and J. Coiton, Op. Cit., P. 55.

(٢٥) "Renaissance and Reformation 1300-1648", P. 109.

في ثمانية مجلدات وقد كرس في الواقع لمجمل تاريخ ايطاليا السياسي ويعتبر بحكم تعمقه في تقييم الاحداث السياسية ومن حيث اسلوبه الدراماتيكي وقوة لغته « واحدا من اعظم مكاسب الدراسات التاريخية الحديثة »(٢٦) وهو لم يفقد اهميته حتى اليوم بالرغم من بعض الاخطاء التي وقع فيها المؤلف عند روايته لعدد من الاحداث التاريخية .

اعتبر ماكيافيللي في البداية ، الجمهورية نظاما امثل للحكم وخدمها بصدق في مطلع حياته العملية ؛ لكن بعد تحليله للاوضاع القائمة في ايطاليا التي تميزت باستفحال الحروب والخلافات بين مدنها ومقاطعاتها وبالضعف المتناهي الذي جعلها هدفا سهلا للغزو الاجنبي المستمر توصل في «الامير» الى الاستنتاج بان خير نظام يمكنه تحقيق وحدة ايطاليا والذود عنها هو ذلك النظام الذي يستند الى سلطة مركزية دكتاتورية مطلقة قوية لا تقف في سبيلها الاعتبارات الدينية والدنيوية والاخلاقية . فان مصالح الدولة العليا ، وبوجه خاص وحدة البلاد ، تبرر في رايه لجوء الامير او الملك الى جميع

(٢٦) و . ل . فاينشتين ، علم التاريخ الاوروبي الغربي في العصر الوسيط ، باللغة الروسية ، موسكو ـ لينينغراد ، ١٩٦٤ ص ٢٧٩ .

السبل كاستخدام القوة التي تشكل ـ كما كان يؤكد ـ اساس الحق ؛ والقسوة والاغتيال وخيانة العهد والقسم والتوسل بالتضليل والرشوة والركون الى الخديعة والكذب والنفاق ؛ اي ان الغايات السامية تبرر الوسائل ايا كانت . وهو كان ينصح حكام ايطاليا بالا يخجلوا من اختيار اي اسلوب مهما تدنى لتحقيق اهدافهم وطموحاتهم السياسية ؛ فالحاكم الناجح هو الذي يلجأ الى الاساليب الانسانية والحيوانية حسب الظروف والحاجة ويعرف كيف يجمع بين خدع الثعالب وفورات الاسود لان المحك والاساس لتقييم السياسة هو النجاح . وعلى هذا الاساس ظهر فيما بعد مصطلحا «الماكيافيلية» و «الماكيافيلي» وتطلق الاولى عادة على السياسة التي لا تعير القيم الاخلاقية اي اعتبار ويطلق الثاني على الشخص الذي يتبنى مثل تلك السياسة .

لكن يجب النظر الى ماكيافيللي من زاوية اخرى تماما . فهو كان ، قبل كل شيء ، وطنيا مخلصا يتحرق شوقا الى تحرير بلاده ـ التي احبها اكثر من روحه كما جاء في احدى رسائله الخاصة(٢٧) ـ من الغزاة وتحقيق وحدتها وبعث مجدها الغابر ،

(٢٧) E. Chabod, Machiavelli and the Renaissance, Cambridge, 1960, P. 141.

فوضع بالاستناد الى تحليل واقع ظروف ايطاليا وحبه الجامح لها والى تجاربه العملية الفنية نظرية رصينة ذات اسس واقعية كان لا بد من الركون اليها في حالة العمل الجاد على طريق الوحدة والتحرير انذاك . فقد وقف بشدة ضد سياسة الاقطاعيين والبابوية لانه اعتبرهما من اهم العراقيل التي تحول دون تقدم عملية التوحيد السياسي واعتبر تعاليم الكنيسة بمثابة عبء يحول دون الابداع النشط للانسان . الا ان هذا لا يعني ان ماكيافيللي كان يناهض الدين ؛ بل على العكس من ذلك انه كان يؤمن بامكانية تحويله الى اداة سياسية فاعلة في حياة الشعب(٣٨) .

انتقد ماكيافيللي بشدة النظام العسكري القائم في البلاد لاعتماده على المرتزقة الوقتيين الذين وصفهم كحثالات المجتمع لا يهمهم سوى النهب فدعى الى تاسيس جيش منظم دائمي يعتمد على التجنيد العام للشباب حتى يتحول الى قوة تحرير وردع حقيقية بيد الامير الدكتاتور . فقد كان ماكيافيللي يحلم مخلصا بان تتحرك جيوش المدن الايطالية « بدافع الاهداف الوطنية » كي يغدو

(٣٨) Ibid, PP. 95-96.

بامكان الطليان «رفع كرامتهم عاليا امام اوروبا»(٣٩) وليحقق الامير الجديد ذلك الواجب الاقدس كان عليه ان يعرف في نفس الوقت كيف يختار اعوانه المقربين من بين الناس القديرين والمخلصين ممن لا يعرفون التزلف والتملق فيتحولون الى سند امين لحكمه ، ولكن عليهم ان يعلموا ان وزنهم انما يعتمد على الموقف الذي يتبناه الامير على ضوء اخلاصهم وتفانيهم له ولنظامه .

لعبت اراء ماكيافيللي السياسية دورا مهما في تطوير الدراسات التاريخية ونظرياتها ، فقد تخطى في بحوثه حدود التفسير البراغماتي للاحداث في وقت مبكر وبدا ينظر الى الدولة وقوانينها نظرة واقعية نابعة من التجربة والتحليل لا من اللاهوت ونظرية الحق الالهي في الحكم ، آمن بحتمية الاحداث التاريخية وبالترابط فيما بينها بغض النظر عن ارادة المشتركين فيها . وتوصل الى الراي بان الصراع السياسي هو المحرك الاساس للتاريخ وغالبا ما يتخذ ذلك الصراع طابعا اجتماعيا وطبقيا ما دام يوجد — كما ذكر في كتاباته — تناقض مستفحل بين مصالح الشعب والفئات المالكة . ففي كتابه الضخم «تاريخ فلورنسا» يتتبع النضال بين الجماهير والارستقراطية

(٣٩) Ibid, P. 135; R. Palmer and J. Colton, Op. Cit., P. 55.

على طول مسيرة تاريخ ايطاليا . ومن هنا ، اي من خلال بحثه عن العوامل المحركة للاحداث التاريخية بغض النظر عن ارادة الافراد الصرفة ، تخطى ماكيافيللي مؤرخي عصر النهضة وتقدم عليهم .

كان ماكيافيللي يمثل في ارائه الفكر البورجوازي النامي الطموح وقد مجد في كتاباته التجار والحرفيين المتمكنين من سكان المدن الايطالية الذين يصفهم بالشعب (Popolo) ودعا الامير الى الاهتمام بهم وتهيئة الاجواء التي من شانها تطوير مصالحهم والترفيه عنهم . الا ان البورجوازية الايطالية قد توقفت عن النمو بسرعة بعد ميلادها المبكر فهي بدات تعيش ازمة جدية قبل وفي عهد ماكيافيللي لذا ظلت ضعيفة ولم تستطع ان تتحول الى القوة الجديرة للاضطلاع بالمهام الجسيمة التي كانت تنتظرها في ظروف ايطاليا الصعبة . وكان من الطبيعي ان ينعكس ذلك في آراء ماكيافيللي المتحمسة للنظام الملكي المطلق مما كان يعني في الواقع نوعا من التساوم مع الفكر الاقطاعي(٤٠) ، وفي معاداته

(٤٠) ظهرت انظمة الحكم المطلق في اوروبا في اواخر العصر الوسيط وجاء ظهورها في توافق مع متطلبات المرحلة التاريخية مع انها لم تكن في واقعها سوى اعلى اشكال النظام السياسي للاقطاع ، وهي لم تفقد في عهد ماكيافيللي جوانبها الايجابية بعد .

الديمقراطية وتخوفه من الجماهير التي « تنجرف بسهولة مع المغامرات » حسب رايه وكان يصفها ب « السواد » او « العوام » (Plebs) وقد عبر عن موقف عدائي صريح نحوها من خلال تقييمه لبعض الانتفاضات الجماهيرية التي وقعت في ايطاليا . وبحكم ذلك فان ماكيافيللي يتوجه في جميع مؤلفاته الى الامراء واصحاب الكلمة واصدقائه المفكرين ويكتب لهم لا للجمهور(٤١) .

لا تنتقص هذه النواحي السلبية الواردة في افكار ماكيافيللي من اهميته كمؤرخ وكوطني مخلص لبلاده خاصة اذا قيمت بشكل صحيح في اطار زمانها ومكانها ودوافعها الاصلية لا الشكلية . وفي الواقع شوه «الماكيافيليون» سمعة ماكيافيللي الى حد كبير . فقد تهجم عليه بعض الحكام الذين تعدوا في سياساتهم اليومية الامير النموذج لدى ماكيافيللي باشواط بعيدة ومنهم الملك البروسي فردريك الثاني الذي كرس ـ مع ذلك ـ كتابا خاصا « لدحض » آراء ماكيافيللي الفه في سنة تسنمه للعرش(٤٢) .

(٤١) "The Civilization of the Renaissance in Italy", An Essay by J. Burckhardt, New York and Toronto, P. 93.

(٤٢) عنوانه « ضد ماكيافيللي » وقد الفه في العام ١٧٤٠ .

ومن جانب آخر حاول العديد من الحكام الدكتاتوريين في ازمنة مختلفة وفي ظروف متباينة وتربة تختلف كل الاختلاف عن تربة ايطاليا القرن السادس عشر استغلال جوانب معينة من آراء ماكيافيللي لمصالحهم الضيقة التي تجسدت في الاستئثار بالسلطة . وكان الزعيم الفرنسي المعروف ريشيليو (١٥٨٥ ـ ١٦٤٢) الذي حقق نجاحات سياسية مشهودة، اول شخصية مستبدة وجد في نفسه الجراة الكافية ليعترف صراحة بانه مدين في الكثير من آرائه ومواقفه لماكيافيللي ، اما البقية فقد طبقوا ما نادى به ماكيافيللي عمليا واستنكروه نظريا ، وغالبا ما قاموا بتطبيق ارائه في ظروف تختلف كليا عن الظروف التي ولدت افكار ماكيافيللي ومن اجل اهداف تختلف عن تلك التي توخاها هو .

ومما زاد في الاساءة الى سمعة ماكيافيللي وارائه ، موقف الكنيسة المعادي منه وقرارها حول منع تداول كتبه علما بانه الف « تاريخ فلورنسا » تلبية لطلب البابا نفسه(٤٣) . واساء اليه ايضا تاكيد

(٤٣) من الطريف ان نذكر ان الكنيسة اصدرت في العام ١٥٥٩ امرا يقضي بحرق نموذج ماكيافيللي ، بينما طبعت روما مؤلفاته وعرضت كوميدياته بحضور البابا نفسه قبل ذلك بحوالي ربع قرن فقط .

العديد من المؤرخين البورجوازيين ، لا سيما علماء الاجتماع الفاشيون ، على نظريته حول السلطة الدكتاتورية المطلقة بشكل مجرد وسكوتهم المطبق عن افكاره حول النظام الجمهوري الذي اقر بانه خير نظام للحكم لان في ظله تقرر الكفاءة ، لا الوراثة ، من يستحق تبوء السلطة . ولكن بلغ تمجيد النازيين والفاشيين لماكيافيللي ، بالرغم من ذلك ، حد ان هتلر كان يضع كتابه « الامير » الى جانبه في مكتبه كما كتب موسوليني رسالة حول نفس الكتاب لنيل درجة الدكتوراه وقد مجد فيها ، وفي تعليق آخر كتبه حول نفس الموضوع بعد تسلمه للسلطة ، موقف ماكيافيللي من حكم الفرد المتسلط فخلص الى القول « ان مذهب ماكيافيللي حي اليوم بعد اربعة قرون »(٤٤) !!.

هكذا تعرض ماكيافيللي الى هجوم الكثيرين ، كما انبرى آخرون للدفاع عنه من منطلقات غير علمية فقد اعتبروه اكثر الناس صراحة لان « كل انسان ماكيافيللي في ذاته » كما كانوا يؤكدون في معرض دفاعهم عنه . لكن يخلط هؤلاء واولئك بين ماكيافيللي

(٤٤) نيقولو ماكيافيللي ، الامير ، تعليق بنيتو موسوليني ، مقدمة كريستيان غاوس ، تعريب خيري حماد ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٠ ، ص ٦ .

المؤرخ والماكيافيلية ، وفي تقييماتهم لافكاره يبتعدون عن الاطار الواقعي الذي عاش الرجل فيه مراقبـا الاحداث من خلاله ومقيما اياها عبر محاولة مخلصة لايجاد حلول تراءت له ، بسلبها وايجابها ، خير سبيل لتحقيق غاية نبيلة توخاها عن ايمان وادراك عميقين ؛ فكان ماكيافيللي ابن عصره ومجتمعه . وليس عبثا ان اهتدى بافكاره واستفاد منها او اشاد بها ابرز المفكرين والساسة منهم الفلاسفة ماركس وديكارت وبيكون والساسة الوزير الفرنسي الاول ريشيليو ـ انجح ساسة اوروبا في النصف الاول من القرن السابع عشر ـ والملكة الانجليزية اليزابيث الاولى التي يصف المؤرخون عصرها عادة بالعصر الذهبي ونابليون بونابارت الذي قرأ « الامير » بامعان وعلق عليه ويتوقع بانه ترجمه الى الفرنسية كذلك .

يجدر بنا ان نشير ايضا الى ان ماكيافيللي كان ذا باع طويل في الادب ، فقد خلف من بعده عددا من الاناشيد والقصائد والرسائل والكتابات النثرية التي انتقد فيها بشدة تقاليد المجتمع البالية مع سلبيات الكنيسة وقد اغنى بها الادب الايطالي بقوة ووضوح وعمق ادائها السلس البعيد عن الاسهاب والاطناب . وحسبنا اننا لا نبتعد عن الواقع اذا قلنا ان مؤرخ عصر النهضة الكبير يستحق بجدارة

الكلمات المعبرة التي حفرت على شاهد ضريحه في فلورنسا تخليدا لذكراه :

« انى للمديح ان يفي هذا الاسم حقه »

لم يكن ماكيافيللي الوحيد من بين اعلام النهضة الذي اصطدم بالواقع ، فقد شاركه في ذلك انسانيون آخرون عاصروا المرحلة الاخيرة من النهضة .

الاصطدام بالواقع

تحولت الاراء المثالية السامية والتوجهات الانسانية لرجال النهضة وابداعاتهم الى محرك مهم للحركة الفكرية الاوروبية ووضعت بدايات جديدة لانطلاقات اعمق فيما بعد الا انها لم تستطع تحقيق آمالهم الواسعة خاصة ما كانوا يتصورونه من انعتاق حقيقي للانسان وللقيم مع انحسار ظل المجتمع الاقطاعي. فكان لابد للجيل الاخير منهم من الاصطدام بالواقع بعد أن بدأ تطور العلاقات الراسمالية في القارة الاوروبية يؤدي الى حدوث احتدام التناقضات الاجتماعية التي انعكست في استقطاب الفئات المختلفة وفي ازدياد دور النقود وفي ظهور اساليب اكثر مكرا من أجل تحقيق الغايات . وقد جاء التعبير عن هذا الواقع بشكل واضح في نتاجات أديبين بارزين عاصرا المرحلة الاخيرة من النهضة هما

شكسبير الانكليزي وسيرفانتس الاسباني وقد بلغ كلاهما ذروة مجده في اواخر القرن السادس عشر واوائل القرن السابع عشر وقد توفي كلاهما في نفس العام .

شكسبير (١٥٦٤ — ١٦١٦) :

ولد الشاعر الانكليزي الكبير والروائي العالمي البارز وليام شكسبير بمدينة ستراتفورد في عائلة حرفية . درس النحو واللغة في مدينته ، ولكن ما تلقاه من التعليم كان محدودا فقد اضطر الى ترك الدراسة في الرابعة عشرة من عمره ليساعد والده الذي المت به ضائقة مالية . انتقل في بداية شبابه الى لندن وبدأ يعمل ممثلا في احد مسارحها ويعيش على ما يدره عليه من مورد قليل مع مورد اقل كان ياتيه من كتاباته لبعض النصوص المسرحية .

لا تتوفر معلومات كثيرة عن تاريخ حياة شكسبير مما اعطى المجال لظهور بعض الاراء غير العلمية منذ اواسط القرن التاسع عشر تنكر وجود شخصيته وتحاول تصوير نتاجاته وكأنها من تاليف اناس آخرين مثل الفيلسوف بيكون وبعض ادباء ذلك العصر والارستقراطيين المولعين بالادب . وكانت حجة معظم اصحاب مثل هذا الراي هي استحالة كون اعمال عبقرية مبدعة كتلك التي كتبها شكسبير

من نتاج ممثل بسيط لم ينتم الى وسط اجتماعي ارستقراطي ولم ينل ثقافة جامعية رفيعة .

يعتبر شكسبير بحق ابن الشعب ، خدم الادب والمسرح بصمت ، ففي اعماله الـ ١٥٤ ومسرحياته الـ ٣٧ قلما يتطرق الى ذاته بينما يلتجيء الى تقاليد المسرح الشعبي والشعر الشعبي الانكليزي والاساطير التاريخية ليعالج من خلالها المشاكل المعاصرة . فيدور الهدف البعيد من مضمون معظم قصصه التاريخية المبكرة حول ضرورة وجود حكومة موحدة قوية تتمكن من القضاء على التسيب الاقطاعي . ومع انه فضل النظام الملكي على الجمهوري ولم يتشكك في امتيازات النبلاء الا انه ظل واقعيا في كتاباته ، فقد اراد ملكا يضمن حكمه وحدة البلاد واستقرارها ، ملكا حكيما انسانيا كان هنري الخامس نموذجه في ذاكرة الشعب ومن خلالها في قصص شكسبير التي تفضح بنفس الدوافع الملوك الضعفاء من امثال هنري السادس وريتشارد الثاني والملوك المستبدين من امثال ريتشارد الثالث والملك جون . وفي كل الاحوال يحاول الكاتب التعبير من خلال قصصه الدرامية التاريخية « هنري الخامس » و « هنري السادس » و « ريتشارد الثاني » و « ريتشارد الثالث » و « الملك جون » وغيرها التعبير عن نظرة

الشعب الانكليزي تجاه انظمة هؤلاء والاحداث التي وقعت ايام حكمهم .

انعكست في الواقع المرحلتان الثانية (اي مرحلة التكامل) والثالثة (اي المرحلة المتاخرة) من افكار عصر النهضة والحركة الانسانية في مؤلفات شكسبير . ففي نتاجاته المبكرة نسبيا مثل « روميو وجوليت» و «حلم في منتصف ليلة صيف» و «تاجر البندقية» تطغى فكرة انتصار الانسان على قوى الشر والتخلف . ولكن في كتاباته الدرامية المتاخرة التي تعود الى بداية القرن السابع عشر تتعمق المآسي كتعبير عن التناقضات الاجتماعية التي بدات بدورها تتعمق اكثر فاكثر . ففي « هامليت » و « عطيل » و « الملك لير » و « تيمون الاثيني » وغيرها يكشف شكسبير عن الهوة العميقة بين آمال وامنيات رجال النهضة وواقع الحياة والمجتمع . فقد حاول ابراز جوانب ذلك الواقع من خلال التاكيد على دور المصالح الذاتية في تحريك الناس وتبيان الصراعات التي يصبح البسطاء والطيبون فيها ضحايا اصحاب القوة والجاه . انه ينظر من خلال « هامليت » مثلا الى خدع الحياة اذ لا تعكس تراجيديا بطل القصة سوى ماساة انسان طيب يصطدم بشرور المجتمع . ويتجسد الاصطدام

بالواقع بشكل اعمق في « تيمون الاثيني »(٤٥) ، فقد عبر شكسبير بجلاء من خلالها كيف ان قيمة الفرد في المجتمع الجديد لا تعتمد ايضا على صفاته الشخصية بل اصبحت تعتمد على امكاناته المادية . فان تيمون الثري كان محترما لدى الناس ، ولكن عندما افلس ابتعد عنه الجميع . ان آهات تيمون بعد افلاسه انما هي تعبير صادق عن سحر وقوة الذهب الذي « يجعل من القبح جمالا » و « يقلب الكذب صدقا » و « يعيد الشيخ شابا » ، فهو « اجمل هدية للعيون الفانية » وبريقه « يفوق كل شيء كالنار الموقدة » ولا « فتاة لا تفتح صدرها ليستقبل حبيبا جميلا كهذا ينساب من السقف ».

وعندما يرى تيمون كيف ان بمستطاع الذهب ان يجعل من الانسان عبدا ، ينقلب من عنصر اجتماعي مرح الى شخص منزو ، حاقد على جميع الناس الذين تحولوا في نظره الى « العوبة في يد اصحاب الذهب » ، فغدا « التغاضي عن جميع البشر » و « احتقار كل الناس » ناموسه « لما تبقى له من ايام » ، واصبحت « الصداقة والضيافة والمجتمع والرحمة » في نظره مجرد « كلمات فارغة »

(٤٥) نشر الدكتور عبدالواحد لؤلؤة الترجمة العربية لهذه المسرحية المعبرة في الآونة الاخيرة (الكويت ، ١٩٧٧) .

و « القريب والجار والمواطن » « اسماء ميتة لا خير فيها » . فلا عجب ان يتمنى ذلك الانساني النبيل المعاصر في الثوب الاثيني القديم « استنزال الوباء على الارض » بعد اصطدامه بالواقع وفهمه لسحر المال الذي يجعل من اللاهثين وراءه ان « يسرقوا من الشحاذ كلبه » .

« لدي شجرة ، تنمو هنا في باحتي
وتدفعني الحاجة الى قطعها ،
وعلي ان اسقطها قريبا . قل لاصحابي ،
قل لاهل اثينا ، حسب تسلسل المراتب
من الرفيع الى الوضيع جميعا ، بان من يرغب
في قطع بلاياه فليتعجل

ويات هنا ، قبل ان تمس شجرتي الفاس ،
ليشنق نفسه . . »

بمثل هذه الاستعارة الرائعة والعميقة يعبر « تيمون » عن واقع مؤلم لم يدركه الا بعد ان ادى به « التبذير الى الشحاذة » بحيث « يكاد اصحابه لا يعرفونه » ويكاد لا يحظى « بنظرة من الناس الذين كانوا يوما يتملقون ويتعشقون ويتملقون بايماءة » منه .

عبر سيرفانتس عن نفس الواقع تقريبا ، ولكن باسلوب آخر تماما .

سيرفانتس (١٥٤٧ ـ ١٦١٦) :

يعتبر سيرفانتس ابرز كاتب ظهر في اسبانيا ، وضع بكتاباته اسس اللغة الادبية الاسبانية الموحدة وساهم في تطوير الادب العالمي .

عاش سيرفانتس في شبابه في ايطاليا ووقع في اسر القراصنة الجزائريين ، وقد حاول خلال سنوات خمس التخلص بشتى الاساليب الجريئة من الاسر . بعد عودته الى اسبانيا عمل موظفا وجاب في مناطق مختلفة من بلاده التي بدات تعيش فترة تدهور وانحلال فاطلع عن كثب على الوضع السيء للناس وعلى ما كانوا يعانونه من ضغط الكنيسة ومحاكم التفتيش التي تحولت الى عبء ثقيل على الحركة الفكرية الاسبانية . وقد دخل سيرفانتس نفسه السجن مرتين بتهم ملفقة حتى انه بدا بتاليف كتابه المعروف « دون كيخوت » او « دون كيشوت » داخل السجن وهو عبارة عن قصة واقعية تعبر عن روح عصر كاتبها العبقري باسلوب رائع .

يحلم بطل القصة دون كيخوت باحياء الفروسية في وقت ولى عهدها ، فهو الوحيد الذي لم يفهم هذه الحقيقة لذا يظهر في ثوب مضحك امام القارىء . وهو كان يحاول تغيير الواقع باساليب اقطاعية . ففي العهد الاقطاعي كان كل شيء يعتمد على قبضة

الاقوياء ، وها هو دون كيخوت يحاول تغيير الواقع بقوة يده فيدافع عن الثكالى واليتامى ويعاقب الاشرار ، ولكن لا يستطيع في الواقع ان يفعل شيئا بل يتسبب في انتشار الفوضى ويجلب الضرر لبعض الناس . الا ان دوافعه كانت نابعة من حب الخير والانسان ، فهو مدافع أمين عن الحرية والعدالة ، وحامي المحبين ، والمعجب الولهان بالعلم والشعر . اذن لم يكن هذا الفارس الشهم سوى انساني أصيل . فمثله العليا مليئة بافكار معاداة الاقطاع التي سادت عصر النهضة والتي ولدت في خضم الصراع ضد قيم المجتمع الاقطاعي . ولكن المجتمع الذي جاء كبديل له لم يستطع تحقيق احلامه المثالية ، فيتهكم الفلاحون الاغنياء القساة والتجار من دون كيخوت ويضحكون على محاولاته للدفاع عن الفقراء والضعفاء وعلى طيبته وانسانيته . هكذا عبر سيرفانتيس بعبقرية عن الواقع وعن موقف الفئات الجديدة وعن صراعات المجتمع التي تعجز القيم المثالية والاحلام الرومانسية من معالجتها .

نال كتاب « دون كيخوت » شهرة واسعة ، فقد ترجم الى عدد كبير من اللغات واعيد طبعه عشرات المرات وعلى مدى قرون طويلة وذلك لما كان يتميز به من تعبير سلس وعرض كوميدي اخاذ.

خاتمة

من كل ما تقدم يبدو واضحا ان النهضة تشكل نقطة وهاجة في حضارة الانسان وفترة مليئة بالدروس والعبر والانجازات الرائعة ؛ وهي لذلك جديرة بالفهم والتقصي . ومع ان النهضة تعتبر من المواضيع التي لقيت اهتماما واسعا من لدن مئات المؤرخين وغيرهم ، الا ان المجال لا يزال مفتوحا لاضافات جديدة الى ذلك البحر الزاخر . وبوسع الشرقيين ان يدلوا بدلوهم في هذا الميدان الرحب بوضع اليد على جذور جديدة لمقومات النهضة . واغلب الظن سيكون في الامكان تحقيق ذلك الهدف العلمي الرفيع بعد مسح علمي شامل للمخطوطات العربية الاسلامية الفنية التي لاتزال اكداس منها تنتظر التحقيق العلمي الجدي وبالعودة الموضوعية الى المصادر الاوروبية الاصيلة حول هذا الموضوع.



المراجـع

الى جانب المراجع التي وردت اسماؤها ضمن هوامش الكتاب يمكن الرجوع كذلك الى المؤلفـات التالية :

Gilmore R., The World of hummanism, 1453-1517, New York.

Hay, D., The Italian Renaissance in its historical background, Cambridge, 1968.

Laven P., Renaissance Italy 1464-1524, London, 1966.

Schweitzer F, Dictionary of the Renaissance.

Singleton Ch., Art, Science and History in the Renaissance, Baltimore, 1967.

"The Civilization of the Renaissance", New York, 1959.

المحتويات

صدر من الموسوعة الصغيرة

١ ـ العرب والحضارة الاوربية . د . فيصل السامر

٢ ـ فلسفة الفيزياء د . محمد عبد اللطيف مطلب

٣ ـ الحقيقة الاشتراكية لحزب البعث العربي الاشتراكي الفكر والتطبيق عزيز السيد جاسم

٤ ـ قضايا المسرح المعاصر . سامي خشبة

٥ ـ الصناعات البتروكيمياوية ومستقبل النفط العربي د . محمد ازهر السماك

٦ ـ الثورة والديمقراطية صباح سلمان

٧ ـ دانتي ومصادره العربية والاسلامية عبد المطلب صالح

٨ ـ الطب عند العرب د . عبد اللطيف البدري

٩ ـ انغولا ... الثورة وابعادها الافريقية حلمي شعراوي

١٠ ـ معالجات تخطيطية لظاهرة التحول الحضري د . حيدر كمونة

١١ ـ مصادر الطاقة د . سلمان رشيد سلمان

١٢ ـ التراث العربي كمصدر في نظرية المعرفة والابداع في الشعر العربي الحديث طراد الكبيسي

١٣ ـ التقدم العلمي والتكنولوجي ومضامينه الاجتماعية والتربوية . د . نوري جعفر

١٤ ـ الثقافة والتنظيمات الشعبية عبد الغني عبد الغفور

١٥ ـ العوامل المحفزة لنمو الدخل القومي د . كاظم حبيب

١٦ ـ فن كتابة الاقصوصة ترجمة: كاظم سعدالدين

١٧ ـ الاعلام والاعلام المضاد صاحب حسين

١٨ ـ استثمار المواد الكيمياوية والعضوية الملوثة للبيئة د . طارق شكر محمود

١٩ ـ مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية د . هاشم الطعان

٢٠- الانسان - اخر المعلومات العلمية عنه ترجمة واعداد : كاميران قرهداغي

٢١- كتابة الشعر في المدارس ترجمة : طه ياسين حافظ

٢٢- من عصر البخار الى عصر الليزر د . اسامة نعمان

٢٣- الاتصال والتغير الثقافي هادي نعمان الهيتي

٢٤- المدخل الى الفكر الفلسفي عند العرب د . جعفر آل ياسين

٢٥- الصهيونية ليست حركة قومية بديعة امين

٢٦- الدفاع المدني الشعبي صالح مهدي عماش

٢٧- النسبية بين نيوتن وانشتاين د . طالب ناهي الخفاجي

٢٨- فن التمثيل عند العرب د . محمد حسين الاعرجي

٢٩- الموسيقى الالكترونية على الشوك

٣٠- دراسة في التخطيط الاقتصادي د يحيى علي النجار

٣١- الرواية العربية والحضارة الاوربية شجاع مسلم العاني

٣٢- نقد الفكر البرجوازي ترجمة يوسف عبد المسيح ثروة

٣٣- الطاقة وآفاقها المستقبلية عادل كامل جميل

٣٤- فن الترجمة ترجمة د . حياة شرارة

٣٥- صورة الكون . د. محمد عبداللطيف مطلب

٣٦ - اتجاهات النقد الأدبي الفرنسي المعاصر . نهاد التكرلي

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
٢١٢ لسنة ١٩٧٩

دار الحرية للطباعة — بغداد ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م